أسيرة بلا قيود

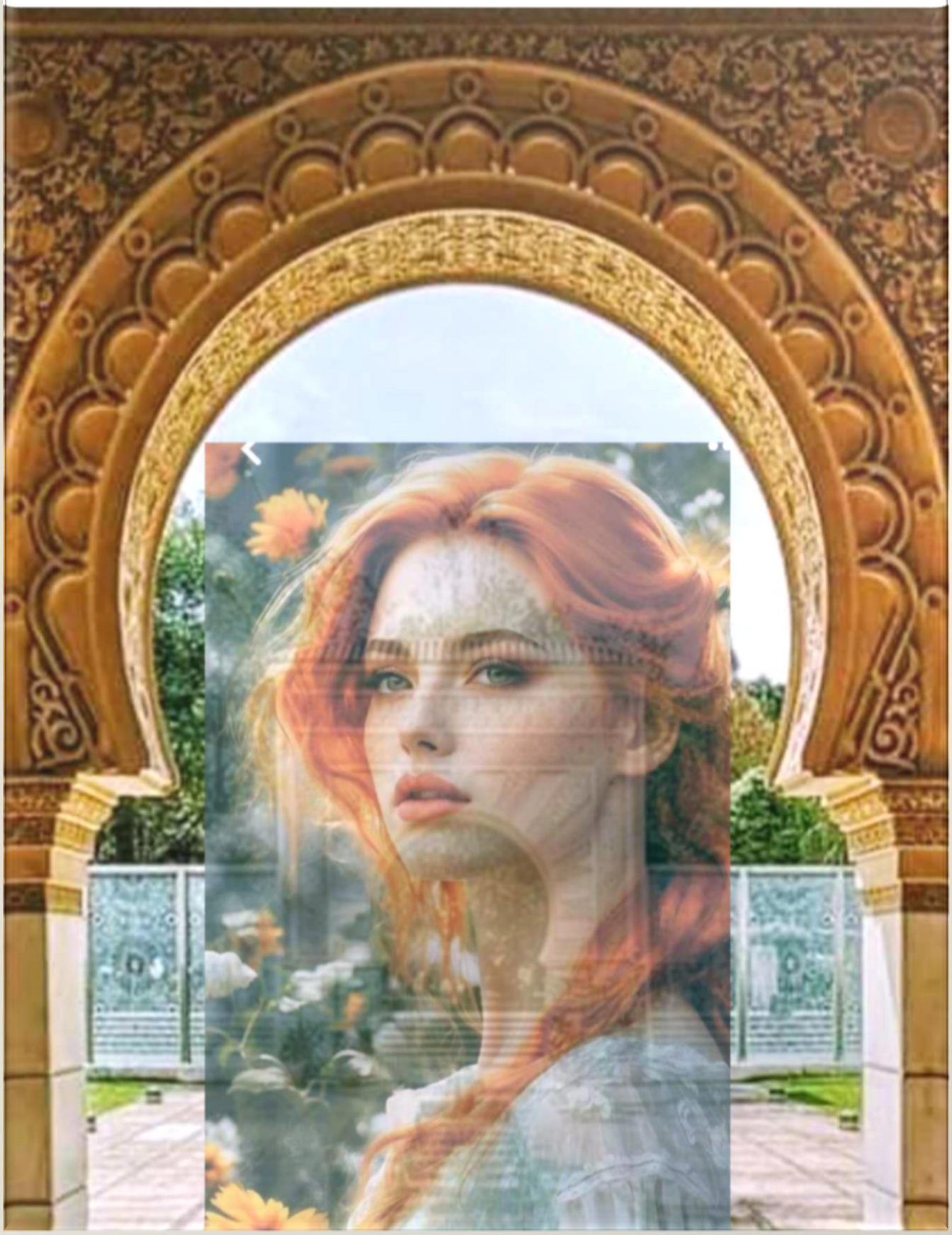

وفـــــــاء بـــوبـــغـــي

أســـيـــرة بـــلا قـــيـــود

روايـــــــة

وفاء بوبغي

إهـــــداء

العقبة الوحيدة بينك وبين تحقيق حلمك هي الرغبة في المحاولة

والإيمان بإمكانية تحقيقه

جويل بروان

لكل من آمن بقدراتي وشجعني على الصبر وتقبل النقد ... أهدي محاولتي الأدبية في اختراق عالم الرواية الساحر

1 صديقة العمر

كانتا تتسابقان كالطفلتين وتضحكان تحت قطرات المطر الخفيفة وَسَط إحدى الحدائق العمومية بلندن، كان ذلك في أواخر شهر مارس الذي يحيل على أجواء ربيعية مفرحة، تحيط بهما وجوها مبتهجة للحياة، وعندما ابتعدت جاسمين عنها بمسافة ليست ببعيدة، نادتها كارلا بلكنة بريطانية نقية: أرجوك، يا جاسمين، اقسمي أنك سوف تعودين.

كانت هذه العبارة كافية لتغير جاسمين لمسارها وتعود للخلف نحو صديقتها المتأخرة عنها وهي تقول :أعدك، سوف أعود، والوعد دين على صاحبه.

عندئذ، توقفت كارلا عن الجري خلفها، واختارت مساحة على العشب الناعم، ورمت بجسدها المنهك من الركض عليه، ودون إدراك منها، انسلت دمعتان من عينيها الزرقاويين، وعندما اقتربت جاسمين منها استقلت بالقرب منها، وعندئذ، خاطبتها كارلا بنبرة حزينة: أتمنى ذلك، لكن هناك شيء ما يخيفني من هذه المغامرة، أخشى أن أفقدك.

تأملتها جاسمين وجه صديقتها قليلا، فبدا لها شاحبا ولونه أصفر، أحست بالخوف وبالطاقة السلبية التي تخالج صديقتها، فاقتربت منها أكثر، ثم أخذت إحدى كفيها الباردتين ووضعته بين كفيها الدافئتين/ وأردفت قائلة: سوف أعود أيتها الحمقاء، ومعي مفتاح أحلامنا، ستكون رحلة مؤقتة، سوف أعود لنحقق حلمنا، ونؤسس علامتنا التجارية الخاصة بنا في ميدان العطور الراقية، ونغادر عالم القباحة التي نعيش فيه. - يا ليت الحلم يتحقق، يا جاسمين، لكنني خائفة من شيء ما، ولا أدري ما هو؟

- سيكون واقعا لا حلما، لن أبقى هناك... فلا ذكريات لي معهم...لقد مرت من عمري ثماني وعشرون سنة، (وفجأة تغيرت نبرة صوتها لتصبح أكثر حزنا)، لقد كانوا قساة قلب معنا، فقط ... لأن أبي تمرد على عادات وتقاليدهم وفضل الاقتران من فتاة غريبة عنهم، لتحل عليه وعلينا معه اللعنة الأبدية، فكان العقاب نفيا وحرمانا من نعيم الحضن العائلي.

- أرجوك ... كفى.... لقد حان الوقت لتجاوز هذا الماضي... وتذكري دائما أنهم بالرغم من كل شي، فهم لم ينسونك وبحثوا عنك من جديد ولو بعد حين، ليس مثلي، لم أحض بمعرفة هويتي، وعانيت متنقلة بين عائلات الاحتضان وعشت في أسوء الظروف، الأهم أن جدك قد استفاق ضميره، وهذا شيء إيجابي من طرفه؟ -ولما

لا تقولي بأن العجوز قد فكر بي للتكفير عن خطاياه...ربما عندما علم بدنو أجله أراد ملاقاة خالقه بقلب سليم، كم هوغبي !! إذا اعتقد أنني سأسامحه بهذه السهولة، فليذهب إلى الجحيم، ما أريده الآن هي تلك الثروة، وإعادة رسم طريق لي في هذه الحياة مجددا مرة أخرى، أحست كارلا بمرارة الحزن الذي يسكن صديقتها الوحيدة، فحاولت تغيير مسار الحديث في منحى آخر، فأردفت مقاطعة إياها: هناك أمر لم أشأ أن أخبرك به، لكن لا مفر منه.

- ماذا الخطب؟!
- إنه جون.
- ما به؟
- إنه يسأل عن مكاننا.

ما إن تلفظت باسمه أمامها، حتى عادت سارة بذاكرتها لسنتين للوراء، وهي تتذكر أول يوم التقت السيد جون، كان ذلك في أثناء تقديمها لعرض أزياء في إحدى الحفلات الخاصة بأحد القصور المملوكة لإحدى العائلات الثرية بلندن، كانت مصادفة من جمعتهما، فما أن أنهت عرضها الخاص بها، حتى اتخذت لنفسها لها مكانا لتستمع بأجواء الحفل، فإذا بها تتفاجئ بنظرات حادة من عينين جريئتين تلاحقها من بعيد، كانت نظرات لأحد ضيوف الحفل، كان قوي البنية وأشقر الشعر وأزرق العينين، يبدو من منظره المهيب، ومن لباسه الأنيق الفاخر المتناسق أنه من عالة المجتمع الراقي، و بين الفينة والأخرى ينفث سيجارة كوبية فاخرة، ما أن التقت عيناها بعينيه حتى ابتسم لها، فبادلته ابتسامة ناعمة اعتبرها إذن له باقتحام عالمها، كان تعارفهما قصيرا، قدم لها نفسه على أنه رجل أعمال دَوْليّ، وأبدى إعجابه الكبير بها وعلى رغبته في التعرف عليها أكثر وأكثر، كانت سعادتها لا توصف تلك الليلة، لم تتوقع أن تكون هذه المصادفة التي جمعتهما لعنة ستحل بها، فما أن انتهت الحفلة حتى طلب رَقْم هاتفها، وبأدب اقترح أن يعيدها لمنزلها بسيارته الفخمة، لم تتردد لحظة واحدة في قبول العرض، ما أن أوصلها لمكان إقامتها، و اطمئن عليها حتى غادر مقر سكناها، أعجبها تصرفه الشهم، كان حماسها كبيرا وهي تحكي لصديقتها كارلا عنه، فاستفسرتها الأخيرة عن اسمه الكامل، لتخبرها أن جل ما تعرفه هو الاسم الذي أخبرها به خلال الحفل - **دون ألبير**- بدا الاسم غير مألوف لكارلا، ولم تستطع التعرف عليه، على الرغم بمعرفتها بمعظم الأسر الثرية في البلاد بحكم إحيائها لعروض أزياء عندهم، لم تكن سارة لتتوقف عن الحديث عن هذا الرجل الذي أسرها من الوهلة الأولى سوى رنين هاتفها النقال، كان هو المتصل، كان أذكى شخص عرفته، بسرعة وضع لها الطعم، والتقطته ببهجة بالغة .استمرت لقاءتهما وتوطدت علاقتهما يوما بعد يوم، كان يأخذها لأرقى المطاعم وأفخم المراقص اللندنية حتى تعلقت به، ولم تشأ الأقدار أن تتلتقيه صديقتها كارلا، إما لأسباب مهنية خاصة بها أو خاصة به، وبعد مرور ثلاثة أسابيع، قبل ليلة من موعد اللقاء الذي رتبته سارة

لتقديم دون ألبير لصديقتها كارلا، فاجأتها الأخيرة بموعد سفرها المفاجئ لبعض البلدان الآسيوية لمدة ثلاثة أشهر لتمثيل دار الأزياء التي يعملان بها .

لم تبق سارة وحدها بالرغْم من رحيل صديقتها، صار جون المؤنس لوحدتها، فزاد تعلقها وقتها به أكثر فأكثر، وبعد مرور شهر، صارت تحس بأعراض غريبة تصيب رأسها بكل صباح، كانت آلام شديدة تجعلها تحس وكأن رأسها سينشق لنصفين، فالتجأت لإحدى الطبيبات الصديقات المقربات لها من أجل تشخيص وضعها، لتكتشف الطامة الكبرى التي لم تتوقع أن تكون في يوم ما إحدى ضحاياها، كانت صدمتها كبيرة، وهي تحاول استيعاب تشخيص الطبيبة لحالتها، كان نبرة صوت الطبيبة عميقة وحزينة، وهي تخبرها بأنها مصابة بأعراض إدمان في مراحل متقدمة، ونصحتها بالالتحاق الفوري بأقرب مصحة خاصة بمعالجة أعراض الإدمان، حتى لا تتفاقم حالتها أكثر فأكثر، أحست لحظتها وكأن الأرض تدور بها، لم تفهم متى وأين وكيف تم ذلك؟ ما إن خرجت من عيادة الطبيبة، و دون سابق إنذار وجدته أمامها ينتظرها بسيارته الفخمة، بدا وكأنه يترصد خطواتها في مكان، لم تشعر بنفسها إلاّ هي بين أحضانه باكية، ثم سردت له كل شيء حدث معها، وأخبرته أن الألم لا يريد مفارقتها، ابتسم لها بخبث ووضع بين يدها مادة بيضاء، ثم أمرها أن تستنشقها دفعة واحدة، ففعلت واختفى الألم بسرعة، وهنا بدأت الرؤية تتضح لها، وتأكدت أنها قد وقعت تحت براثن رجل شديد الْخَطَر لا يرحم، ورغم ذلك استمرت علاقتها به، وصارت كلما التقته لا تر منه إلا الوجه القبيح الذي أخفاه عنها في اللقاءات الأولى، واكتشفت عدة معلومات عنه بعد تحريات قامت بها على نحو سري، كان اسمه الحقيقي هو جون ستيوارت ويعمل لمصلحة المافيا الدولية وذو جنسية بولونية، استجمعت قوتها وواجهته بحقيقته، فلم ينكر هويته، وعندما حاولت رفع يدها لرسم صفعة على وجهه، صار أكثر قسوة وتحول فجأة ذلك الحب الأفلاطوني التي أوهمها به إلى عنف جسدي، فقبض يدها بشدة حتى كاد أن يكسر عظامها، وبكل وقاحة أخبرها أنها كانت مجرد فأرة تجارب لمخدر جديد سوف يطرحه في السوق العالمية، ثم خيرها بين الخضوع الكامل لكل أوامره أو الموت البطيء .غادرت المكان وفي قرارة نفسها مقاومة ذلك المخدر اللعين الذي صار ينهش جسدها خطوة خطوة، لكن قوة تأثيره فيها كانت أقوى من إرادتها، وفي اليوم الموالي وجدت نفسها تحت قدميه تترجاه من أجل منحها ذلك العلاج السام، كانت تدفع له مبالغ ضخمة، وفي ظرف شهر واحد بعد معرفة حقيقته أفلست كل ثروتها، وعندما علم بإفلاسها، صار يهينها أكثر فأكثر، لدرجة أنه اقترح عليها على العمل معه في مجال الدعارة الراقية وتسويق ذلك المخدر بين معارفها، فرفضت بشدة واقترحت عليه مقابل متعتها تقديم عدة صكوك دون رصيد، لم يتردد لحظة في قبول عرضها، وجعلها توقع على صكوك كثيرة حتى أصبحت رهينة لديه، وعندما انتهت الحلول التي لديها، عادت مرة أخرى تترجاه منحها العلاج السام، فعاد ليقترح عليها نفس العرض المذل بالنسبة لها، مانحا إياها هذه المرة أسبوعا واحدا من أجل التفكير، وهو يدرك سلفًا قرارها الأخير، فهو يعلم مدى ضعفها وحاجتها إلى ذلك المخدر

الملعون، خلال تلك المهلة التي منحها إياها، حاولت أن تعالج نفسها بنفسها، لكن الآلام كانت أقوى منها، كان ألما قويا لا يستهان به، أصبحت ترى نفسها مجرد جسد لا فائدة منه، لم تستطع أن تتحمل أكثر، فاتصلت به قبل نهاية المهلة المحددة، لتخبره أنها رهن إشارته منذ هذه الليلة إذا شاء.

حَلَّ المساء، فارتدت سارة أبهى ثيابها، وتزينت بشكل لافت عن العادة لتخفي الشحوب الذي يغطي وجهها، لكن ما أن فتحت باب شقتها للمغادرة، حتى تفاجأت بصديقتها كارلا أمامها ومعها حقيبة سفر ضخمة، لم تحس بنفسها إلاّ هي بين أحضانها باكية، كانت بحاجة ماسة لها، بادلتها الأخيرة العناق بشدة، وهي تلامس خصلات شعرها الممووج، فلم تستطع تلك الزينة إخفاء الحزن البادي في عيني صديقتها سارة ولا اصفرار وجهها الذي صار أشبه بالموتى، كان لقاؤهما بمثابة أجوبة مِؤكدة لكارلا على كل الاستفسارات التي كانت تدور في رأسها وهي بعيدة عنها بمسافات طويلة، وعلى الحيرة التي كانت تعيشها وهي لا تتلق أي جواب على اتصالاتها الكثيرة، كانت أعراض الإدمان واضحة على كل جزء من جسدها، كان تغيرا واضحا وكأنها أمام فتاة لا تعرفها، بعد عناق طويل جلستا معا في غرفة الطعام، وقبل أن تسألها كارلا عن حالها، سردت لها سارة كل شيء حصل معها منذ أن رحلت عنها، أخبرتها عن الصفقة التي أبرمتها مع رجل المافيا، وطلبت منها أن تقرضها بعض المال حتى تشتري الدواء السام ويختفي الصداع من رأسها، بكت كارلا بشدة لحال صديقتها المحزن، وسايرتها في ما تريد في البداية، ثم بعد ذلك تمكنت من إقناعها بالدخول لإحدى المصحات الخاصة بالبلاد، كانت كارلا كلما تسمع صراخها وهي في حصص العلاج فتبكي دما على صديقتها، وعندما بدأت تتماثل للشفاء، أخدتها إلى مصحة أخرى خارج البلاد.

بعد سنة من العزلة عن العالم، تفوقت إرادة الشفاء لدى سارة، ونجحت في محاربة الإدمان، وحتى تحافظا على سلامتهما الشخصية، قررتا تغيير مقر العمل وعنوان السكن مع البقاء بمدينة لندن، وبالرغم من ذلك استمر **جون** بالبحث عنهما في جميع دور الأزياء، بعد أن وصل لمقر عملهما، لم يتمكن من إيجادهما لنفي مديرة دار الأزياء اشتغالهما معها، بعد معرفة القصة الكاملة له معهما.

ذلك الشرود الطويل الذي غاصت فيه جاسمين، جعل كارلا تسألها بنبرة قلقة: وماذا لو لحق بك إلى هناك؟

- إنه لعنة وحلت بي، لكن حالما أحصل على ميراثي سأعود وأدفع له كلّما أملك حتى يعيد لي جميع الصور.
- أي صور تقصدين؟!
- لا شيء، دعينا نعود إلى شقتنا لترتيب الحقيبة واحتساء آخر مشروب ساخن لنا مع بعض.

كانت الساعة تقارب العاشرة مساء في أثناء وصولهما للشقة الصغيرة التي تأويهما، كانت شُقَّة متوسطة، ذات جدران وردية اللون، وتضم غرفتين للنوم وقاعة مخصصة للوجبات الصباحية والمسائية ثم مطبخ صغير وحمام واسع، كانت تقع في الطابق الثاني بأحد الأحياء السكنية الخاصة بالطبقة المتوسطة بالعاصمة البريطانية، ولا تبعد عن مقر عملهما إلا بنصف ساعة بالسيارة، ما أن وصلت إليها، حتى شُغلت سارة بترتيب ثيابها داخل حقيبة السفر، في حين توجهت كارلا لإعداد المشروبين الدافئين من

الشوكولا الحلوة، وبعدما أنهت كل شيء، أغلقت الحقيبة بإحكام، ودنت منها كارلا وهي حاملة الكوبين، وأردفت بنبرة مستغربة :الحقيبة صغيرة جدا... أن تأخذي معك كل ثيابك؟

- لا داعي لذلك، أظن أن أسبوعاً أو أسبوعين كافيين لإكمال كل الإجراءات والعودة مجددا للديار
- أتمنى ذلك من كل قلبي. وهل أخبرك المحامي؟ أين ستقيمين عندما وصولك لهناك؟
- لا أدري، كلّما أخبرني به هو أنه سوف يكون باستقبالي في حدود الثامنة بالمطار الدَّوْليّ بالدار البيضاء، وحينها سوف نرى كيف ستسير باقي الأمور الأخرى، لا تقلقي بشأني فما زال متبقياً معي مبلغ لا بأس به، أظن أنه سوف يكفي لمدة أسبوع.

وضعت كارلا الكأسان على لمائدة التي تتوسط قاعة الطعام، ثم عانقت صديقتها بحرارة، وبنبرة باكية خاطبتها: سأشتاق إليك كثيرا يا ذات العينين الفريدتين.

- وأنا أيضا يا صديقتي... (فانجرفتا باكيتان) .... لم يبق لي سوى ساعتين على موعد الطائرة. ستكون رحلة ليلية وهذا أفضل لي، حتى لا أفكر بشيء.

كانت هذه آخر ليلة لها تحت سماء لندن البهية التي لم تغادرها منذ عشرين سنة، منذ أن أرسلتها إحدى المؤسسات المكلفة بالأطفال اليتامى لإحدى العائلات البريطانية لتبنيها، كان عمرها آنذاك لا يتجاوز الرابعة عشر إثر وفاة والديها في حادثة سير مميتة، ليكون استقرارها هناك استقرارا نهائيا، وبعد نيل دبلومها الجامعي في التراث البريطاني، وبتشجيع من العائلة المستقبلة لها استقلت بنفسها، وأثناء رسم مسار لحياتها، كان لقاؤها بصديقتها كارلا التي بدورها عاشت ظروف قريبة لها، كان الفرق بينهما أن هذه الأخيرة كان متخلى عنها، لا تعرف هوية لها، كانت مصادفة من جمعتهما في أحد التكوينات الخاصة بصنع العطور الراقية الطبيعية التي استغرقت مدتها ستة أشهر، كان عمرهما متقارباً جدا، حيث كانت كارلا تكبرها بسنة واحدة، وبعد عدة لقاءات توطدت بينهما صداقة قوية، ومباشرة بعد انتهاء الدورة التكوينية، اقترحت عليها كارلا فكرة السكن المشترك، فأصبحت لها الشريكة في المصاريف والصديقة المؤنسة لوحدتها، اجتازا معا أقسى

الظروف، فلم تنس سارا ذلك اليوم عندما اقترب منها صاحب العمل العجوز المدعو السيد ألبير في المحل وبعينيه مرسومة عبارات الاعتذار وهو يخبرها أنه قد باع محله، وسيعود إلى بلده إيطاليا لقضاء ما تبقى له من حياته، لتجد نفسها وبدون سابق إنذار عاطلة من العمل، استمرت معانتها لمدة أربعة أشهر، مع أنّ محاولاتها الحثيثة لإيجاد البديل عنه، لكنها كانت لا تعثر إلا على عمل بأجرة هزيلة أو بمكان بعيد بمسافات عن مدينة لندن، فكانت تحس بالإحراج من صديقتها التي ظلت طوال هذه المدة متحملة جميع المصاريف الخاصة بهما ، وبعد فقدان الأمل التجأت لصديقتها كارلا لتتوسط لها للعمل معها كعارضة في دار الأزياء التي تعمل فيها، رفضت الأخيرة بشدة طلبها وأخبرتها قائلة :العمل لا يناسب شخصيتك يا رمادية العينين، وإذا ولجته فلن تعرفي مجالا آخر غيره، فيه مشكلات ومتاعب كثيرة لا تظهر للعيان.

فردت عليها جاسمين مصرة: أريده، وسوف يكون مجرد وظيفة مؤقتة ليس إلا، ريثما أجد البديل الذي أتمناه، أرجوك ساعديني.

عندما رأت كارلا الإصرار بعيني صديقتها استسلمت لإرادتها، وأردفت قائلة: إذن لا مفر من ذلك، لن أتخلى عنك، سأكون بالمرصاد لكل من يحاول أذيتك .

من دون أن تشعر، وجدت نفسها منغمسة في هذا العالم القبيح كما تسميه دائما، مكنتها تلك القامة الهيفاء التي امتلكتها والعينان الفريدتان اللون من وضع بصمة ناجحة لها فيه، كما أكسبتها هذه المهنة شخصية قوية واثقة من نفسها، كل هذا جعلها متيقِّنة أن مصيرها مرتبط إلى حد بعيد بهذه الشقراء الجميلة صاحبة العينين الزرقاوين.

عندما اتضح لصديقتها كارلا ألّا مفر لهما من العمل في هذا المجال، حاولت إقناع صديقتها سارة بالرحيل إلى عاصمة الموضة الأوروبية مدينة روما الإيطالية من أجل الحصول على أجرة أفضل، فكان الرفض من طرف الأخيرة، التي لم تتخيل لها حياة أخرى في مدينة أخرى غير مدينة الضباب الذي لطالما شبهتها بالأنثى الأوروبية الأرستقراطية الأنيقة.

02 عودة الإبنة الضالة

لم تحس سارة بألم الفراق إلا عند إعلان المضيفة عن انطلاق الرحلة المتوجهة من مطار لندن نحو مدينة الدار البيضاء الكبرى بالمملكة المغربية، فسارعت جاسمين بعناق صديقتها والدموع تنهمر كالشلال على خديها، فهي الرفيقة والمؤنسة لها لسنوات عدّة، جمعهما منزل واحد، شهد على كل أفرحهما وأتراحهما، كان عزاؤها في تلك اللحظات، أنه مجرد فراق مؤقت من أجل حياة أفضل بالنسبة لهما .استغرقت الرحلة بالطائرة لساعات، لم تحس سارة خلالها بطول المسافة، وذلك لاستغراقها طوال الرحلة الليلية بنوم عميق، وما كانت لتستفيق لولا صوت المضيفة

التي أعلنت نهاية الرحلة مُطالبة المسافرين والمسافرات بالتأكد من ربط أحزمة الأمان الخاصة بهم، من أجل الاستعداد لعملية النزول بمطار الدار البيضاء الدَّوْليّ، نظرت إلى ساعتها فوجدتها تشير إلى الثامنة صباحا، أحست بغرابة كبيرة، فهذه أول مرة تطأ أقدامها بلدا شرقيا، والأغرب أنه ليس كأي بلد آخر، فهذا موطن والدها الذي شاءت الأقدار أن تظل بعيدة عنه، كان جُل ما تعرفه عن المكان انطلاقًا من أصدقاء لها زاروا المكان، أخبروها أنه بلد ساحر كاسمه لا تغيب عنه الشمس، يُلقب بمملكة الشرفاء، وأن بكل حَي وزُقاق داخله حكايات وأساطير كثيرة، ورغم ذلك لم تفكر يوما بزيارته، خصوصا وأن لديها رهاب من أي شيء يذكرها بماضيها الكئيب، ومن حسن حظها أن العائلة الوحيدة التي استقبلتها، كانت عائلة مثقفة ومكونة من زوجين، زوج لا ديني وزوجة مسيحية متدينة، كانت عائلة تحترم الاختلافات، فلم تُجْبَرها على ارتياد الكنائس، أو تم فرض أي معتقد أو فكر عليها، تركوا لها حرية الاختيار، ففضلت أن تبقى على دين والديها، حتى لو أنها كانت جاهلة بكل تفاصيله، كبرت وازداد شغفها باللغات، فأتقنت العربية والإيطالية إلى جانب اللغة الإنجليزية، كان لها أيضا شغف كبير بكل ما له قيمة وأثرى، وكان من أحلامها زيارة بلد الفراعنة والتمتع بسحر أهراماتها .

حطت الطائرة على أرضية المطار بهدوء، فكانت هي آخر المسافرين المغادرين منه، نظرت مليا هنا وهناك باحثة عن مضيفها، وفي إحدى الزوايا لمحت لائحة مدون عليها اسمها الكامل بلغة إنجليزية سليمة، يحملها رجل خمسيني، أسمر البشرة، بشوش الوجه ذو لحية سوداء خفيفة ممزوجة ببعض البياض، نحيف الجسم ومتوسط القامة، يرتدي بذلة سوداء أنيقة، سارعت نحوه وقدمت له جواز سفرها، فابتسم لها وبلكنة إنجليزية أنيقة خاطبها:

مرحبا بك يا آنسة سارة محمد العاجي، أعرفك بنفسي... أنا محامي عائلة العاجي...مرحبا بك في بلدك، الكل مشتاق لك، ينتظرون قدومك بفارغ الصبر.... وبصفة خاصة جَدُك السيد الكبير.

كان شعورا غريبا انتابها في تلك اللحظة، إنها أول مرة يناديها أحد ما بلقبها الأصلي، فعادة ما يتم منادتها **جاسمين لانجرافون**، وهو لقب منحتها إياها العائلة البريطانية المحتضنة لها، بَادلته التحية بابتسامة باهتة، وهي لا تزل تحاول استيعاب كلّما يحصل معها، أهو حلم أم واقع تعيشه؟ كُلّما تَذكرته أنها في هذا المكان من أجل المال وليس من أجل البحث عن دفء وأحضان عائلية...كلّما تريده هي تلك الأموال التي سوف تحولها في أقرب الفرص إلى دولارات وتعود من حيث أتت، فالظروف من أجبرتها على هذا اللقاء، وأثناء تَمَعُنها بشكل جيد في حديثه الموجه لها، استغربت من آخر كلمة تَلفظ بها الرجل، لم تفهم شيء خصوصا وأنها اعتقدت أن السيد الكبير قد توفي وفق المحادثة الهاتفية التي دارت بينهما، وأنها هنا لتسلم ميراثها، و حتى تكسر تلك الحيرة التي اجتاحتها فجأة، بادرته بلغة عربية منكسرة متسائلة [باستغراب] : لم أفهم يا سيدي...هل العجوز مازال حيٌّ يُرزَق ؟!

ابتسم ابتسامة صغيرة وأجاب بنبرة هادئة: جميل منك أنك تحاولين التحدث بالعربية، لكن القبيح أن العجوز مازال متمسكا بالحياة حتى يراك...وهذا من حسن حظنا يا آنستي.

أحست أنه يحاول التلاعب بالكلام، فأردفت بنبرة حادة: لكنك أخبرتني في وقت سابق، أنني هنا من أجل أخذ نصيبي من الميراث .... لم أعد أفهم شيء يا سيدي ...أهذا مزاح أم خداع؟

تفاجئ من ردة فعلها، فأجاب بشكل عملي: أنا لم أخدعك يا آنسة سارة، وهذا فعلا مضمون محادثتنا الهاتفية الأخيرة...لكنني لم أكن أظنك قاسية بهذا الشكل، حسنا، فلنصعد السيارة ولنتحدث بكل صراحة، ما دمت قد أفصحت عن نواياك وهدف قدومك بهذه السرعة .كانت السيارة التي تقلهما من النوع الميرسديس القديمة الطراز، جلسا معا على المقاعد الخلفية من السيارة، وما انطلق السائق، حتى تغيرت ملامح الرجل من الليونة للقسوة الشديدة، ثم اختفت التعابير البشوشة من وجهه، ودخل في حالة تأمل عميق وكأن ما سيخبرها هو شيء عظيم، لم تشأ أن تقاطعه وتركته في زاويته الخاصة، بعد لحظات من الصمت الطويلة، أردف قائلا بنبرة صارمة: حسنا بما أنك جئت فقط من أجل الثروة، فمن الأفضل أن أفصح لك عن بعض الأشياء الضرورية، ولك مطلق الحرية في الاختيار ...إما توافقين أو تعودين من حيث أتيت؟

فأجابت بنبرة حادة: هذا ما أريده يا سيدي...فالزمن مهم بالنسبة لي، سأكون شاكرة إذا وضحت لي كل شيء...تفضل لو سمحت.

ابتسم مجددا، وحتى يُلطف أجواء الحوار بينهما، أردف قائلا: هذا غريب... فرغم طول الفراق، فهناك بعض الصفات المشتركة بينك وبينه....

وبنبرة قاسية قاطعته: أرجوك يا سيدي ...كفى...فأنا لست هنا لتبادل هذه الأحاديث العاطفية، أرجوك تفضل واختصر الكلام.

رغم أسلوبها غير المهذب معه، حافظ الرجل على هدوءه، وأردف بنبرة هادئة: حسنا، أنا لم أخدعك يا آنستي، سوف تحصلين على ثروة ضخمة تقدر بالملايين، وهذا الميراث هوأراضي شاسعة وأسهم في شركات لها عدة فروع على أرض المملكة الشريفة وكلها للسيد الكبير، ونشاطها يتوزع بين صناعة المواد التجميلية المصنوعة من منتجات طبيعية خالصة وأخرى في تصدير الورود لمختلف دول العالم، لقد تمكن من تحقيق سمعة مرموقة في السوق الوطني والعالمي. وقد قرر السيد الكبير أن يوزع ثروته وهو لا يزال حيٌّ يُرزَق، وبما أنك جزء من العائلة فلك الحق في كلّ ما يَملك.

- رائع جدا ...إنها إمبراطورية مالية ضخمة ...ومتى سوف يتم توزيعها؟
- عندما يتم احترام الشروط التي فرضها السيد الكبير...
- شروط... وماهي هذه الشروط؟ ؟!

عندما لم يُجب كَررت السؤال مرة أخرى، فرد عليها قائلا: حسنا، بما أنك مستعجلة على ما يبدو لي، فلا باس، سوف أخبرك، لقد مُنحت بعض الصلاحيات لأفصح عن البعض منها، من أهم هذه الشروط هو الإقامة في قصر عائلة العاجي لمدة سنة كاملة، ثم الزواج من ابن شقيق السيد الكبير، وأنت ملزمة أيضا باحترام عادات وتقاليد العائلة .

صدمت بكلامه، فضحكت بهستيرية غير مصدقة، ثم أردفت: سنة كاملة يمكن تقبلها... لكن زواج دون حب، وتقاليد بالية سبق وحطمت حياة أبي.ما نفعها ؟ ! أهو فخ آخر من العجوز لتدمير حياتي كما دمر حياة أبي؟ -

فوجئ الرجل الوقور من ردة فعلها واكتفى بالصمت قليلا، فأضافت بنبرة مستهزئة: ما هذا الجنون يا سيدي؟ لا أريد أن تكون لي حياة عائلية في هذا البلد... ولا يمكنني الزواج برجل لا أحبه.

.لم يرغب المحامي في البداية أن يدخل معها في نقاش لا يُعدمن صلاحيته، وعندما رأى الإصرار بعينيها، أجاب بنبرة حاسمة: أأفهم من كلامك أنك ترفضين هذه الثروة؟

وبنبرة مترددة أجابت: بالطبع أريدها وبشدة، أنا بحاجة ماسة للمال، لكن هذه الشروط يا سيدي غير مقبولة على الكرامة الإنسانية –

- أتفهمك جدا، وأفهم كيف تفكرون في الغرب، كلّما أستطيع قوله لك، أن حلاوة الرباط المقدس بين الرجل والمرأة تأتي بعد حين، فأرجو ألّا تتسرعي باتخاذ أي قرار يمكن أن تندمي عليه في وقت لاحق، وأعتقد

أيضا أن ما ستحصلين عليه يستحق بعض التضحيات منك، الآن كل شيء بيدك، ..... أريد جوابا نهائيا وواضحا يا آنستي

بعد صمت دام لعدة دقائق معدودة، تدخل الرجل مرة أخرى: هل أفهم من صمتك أنك ترفضين العرض؟ هل نعود للمطار؟

انعقد لسانها عن الكلام مرة أخرى، فكرر الرجل السؤال من جديد: يا آنستي أريد جوابا منك وإلا سَيُعد صمتك دليلا قاطعا على رفضك.

نظرت إليه أخيرا، وأجابت مستسلمة: موافقة، فلا شيء مهم سأخسره، لطالما كانت حياتي صفقات وصفقات، معظم هذه الصفقات دمرني، من سيهتم بسعادتي؟

أحس المحامي بالشفقة عليها، لكنه اكتفى بالصمت، حتى لا يدخل معها في نقاشات لا تنفع أي أحد منهما.

وفي تلك الأثناء، توقفت السيارة أمام قصر فخم جدا، ليعلن المحامي عن نهاية الرحلة: لقد وصلنا، فمرحبا بك في منطقة إمليل الساحرة، وأتمنى أن تكون حياتك القادمة في قصر العاجي أسعد وأجمل.

كانت المسافة التي قطعتها السيارة من مطار الدار البيضاء الدَّوْليّ إلى منطقة إمليل حوالي 300 كلم أي تقريبا حولي 4 ساعات، ورغم سحر المنطقة الجبلية الساحرة فإن عينيها كانت طوال الرحلة موجهة إلى ما وراء نافذة السيارة، وعقلها شاردا في تحليل الحديث الذي دار بينها وبين المحامي، الذي جعلها تحسم في قرارها بوقت وجيز، اتخذت قرارا إما سيغير حياتها للأفضل أو للأسوء.

03 لقاء جاف

كان القصر شبيها بالقصور الأسطورية التي تحكى بالروايات الغربية القديمة عن الشرق، يقف شامخا بين التلال الجبلية لمنطقة إمليل، بعيداً عن صخب مدينة مراكش بحوالي سبعين كلمترا، وتحيط به حديقة غناء تتوسطها نافورة ضخمة أضفت سحرا خاصا له، كانت أول من استقبلهما هي سيدة متوسطة العمر وقمحية البشرة ممتلئة الجسم، تتجاوز من العمر الخمسين سنة، ترافقها شابة يافعة في العشرينيات من عمرها، ترتديان زيا تقليديا موحدا، أنيقا ومحترما، يدل على أنهما تعملان لدى هذه العائلة، تبسمت لها المرأة الأكبر سنا، وهي تتأملها بعطف شديد، وكأنها تعلم هويتها وبموعد وصولها، وبنبرة حنونة خاطبتها -ما شاء الله.وتبارك الخلاق تشبهين السيد الكبير كثيرا .ابتسم المحامي ثم سألها: هل السيد الكبير موجود في القصر يا أختي خدوج؟ -نعم يا أستاذ إبراهيم، إنه موجود حاليا في مكتبه برفقة السيد صلاح ويوسف، وقد طلب مني مرافقتكما لقاعة الطعام، فأرجوكما تفضلا معي .انبهرت سارا بشاسعة القصر الفخم المزين بأفخم الأثاث والتحف الثمينة والنادرة، كان مرتبا على نحو فريد ينم على أن صاحبه ذا ذوق رفيع وراق.وبعد دخولهما للقاعة المخصصة للطعام،بهرت بشساعتها، وبنقوش ساحرة تزين كل أركانها، كان يعلوها أربع ثريات بلورية، فريدة الشكل أضفت على المكان رونقا خاصاً، لطالما سمعت عن سحر قصور مراكش ونواحيها وأحيائها وشعائرها من أصدقائها الذين صاروا مسحورين بها، لكن الشيء الذي لم تتوقعه هو أن تعيش التجربة بنفسها، لتجد نفسها مسحورة هي الأخرى وكأنها بمكان سحري فريد جدا، لم تعي بنفسها وهي مأخوذة بسحر القصر، حتى وجدت نفسها أمام مائدة مستطيلة عريضة مليئة بالمأكولات يحيط بها ثلاث نساء مجهولات بالنسبة لها، ثم انسحبت السيدة خدوج دون أن تقدمها لهم، ما إن شاهدوها بينهن حتى علت وجوههن إعلامات الفضول، فتدخلت سيدة بشوشة الوجه، هادئة الطباع، في بداية الخمسينيات من عمرها، متوسطة القامة ونحيفة الجسد، أنيقة بحجابها ولباسها الطويل، تعلو وجهها ابتسامة ناعمة، وأردفت بصوت أنيق وهادئ - :مرحبا بك يا أستاذ إبراهيم.ما هذه المفاجأة الصباحية الجميلة؟ ... تفضل اجلس معنا أنت وظيفتك الكريمة - .شكرا لك، يا سيدتي عائشة،

أشار إلى سارة بالجلوس قائلا: هيا اجلسي يا ابنتي.

لم تسلم سارة خلال جلوسها بينهن من نظراتهن الفضولية، لكن على الرغْم من ذلك لم تتجرأ أي منهن على الاستفسار عن هويتها، فاقتصر على تبادل أحاديث ثنائية فيما بينهن أو أحاديث فردية مع المحامي، الذي بدا لها، وأن علاقته بالعائلة هي أكثر من عَلاقة مهنية، حيث حاولت إحداهن استدراجه بالكلام بنبرة هادئة، أطالت النظر في الضيفة الجديدة الموجودة بينهم بفضول شديد، وأردفت: إنها فعلا مفاجأة يا عم إبراهيم. يبدو أنك والسيد الكبير بئران من الأسرار الغامضة... فخيرا إن شاء الله ...

كانت المتحدثة شابة جميلة، تبدو من ملامح وجهها أنها في أواسط العشرينيات من عمرها، بيضاء البشرة ومتوسطة القامة، ممتلئة الجسم قليلا، مبهرة بوجهها الدائري، ترتدي لباسا تقليديا أنيقا ومحتشما، تُغطي نصف شعرها بشال بنفسجي مظهرا بعض الخصلات من شعرها الأسود الطويل على كتفيها كشلال ناعم.

ضحك المحامي ورد بنبرة ودودة :لن يكون إلا الخير دائما ما ينتظرنا، يا سيدتي ريحانة.

لم تشف تلك الإجابة فضول السيدات الحاضرات، فتدخلت السيدة الأخرى المجاورة لها، التي بدت من عمرها وملامحها وكأنها والدتها، بجسمها الممتلئ وبلون بشرتها المائلة نوعا ما إلى البياض، وحجابها الحريري العصري، وبتعجرف خاطبته قائلة: هذا ما نتمناه يا أستاذ إبراهيم.فصحة خالي لا تستحمل صدمات أكثر مما مضى.

- لا تخافي، يا لالة أم ريحانة.هذه الصدمة سوف تسعده. فليحفظه الله لنا حتى يرى شجرة أحفاده تنمو أمامه أكثر فأكثر.

فأردفت السيدة الأخرى التي تتوسطهما، وتُدعى صالحة، وكانت تبدو أكثر هدوءا وأكبر سنا بين النساء الحاضرات مخاطبة أختها أم ريحانة قائلة : لا تقلقي يا أختي فاطمة، فلن يكون إلا خيرا لم تتفوه سارة بأي كلمة، وشعرت بتكهرب حاد بغرفة الطعام، واتضح لها انطلاقًا من الحوارات التي دارت أمامها، أن السيد الكبير هو الوحيد الذي يعلم بمجيئها، اجتمعت التناقضات كلهن في مشاعرها، بدت لها عائلة تقليدية جافة لا تحب الإضافات، فما بالهن لو علمن أنها هنا من أجل مشاركتهن المال، بعد لحظات ظهر رجل في السبعينيات من عمره على كرسي متحرك يدفعه بنفسه، يرافقه شابان وسيمان، تأملت العجوز قليلا، فبدا لها ودود الملامح، أشقر ورمادي العينين، يعلو رأسه شعر خفيف ناعم وأبيض، يوحي على السنين التي مضت من حياته، وعلى أنه كان رجلا وسيما جدا في شبابه، صدمة للشبه الكبير الذي يجمعها مع هذا العجوز الجميل، ما إن استقر في مكانه الرئيس من المائدة، ثم انتبه لوجودهما حتى تبسم غير مصدق ما يراه أمام عينيه، وأمام صدمة الجميع نادها بحفيدتي الغالية، ثم طلب منها الجلوس على الكرسي المجاور له بيساره. لحظتها انتابتها مشاعر غريبة ومتناقضة نحو هذا العجوز، ما بين مشاعر مليئة بالغضب منه على كلّما فعلها بوالدها ومشاعر الشفقة على عجزه وهو على

كرسي متحرك، بدا لها رجل منهكا غلبته الشيخوخة، عاجزا عن الحركة، استجمعت كامل قواها، ورمت بكامل غضبها خلفها، وبأدب تقدمت منه خطوة، وطبعت قبلة على نحو مفاجئ على خده الأيمن أمام ناظري الجميع، فابتسم لها، بينها رمقها أحد الشابين بابتسامة ودودة، في حين كانت نظرات الشاب الثاني المرافق له مليئة بالغضب وكأنه لم يعجبه تصرفها، ولما همت بتقبيل خده الأيسر، تدخلت السيدة أم ريحانة بنبرة ساخطة-يا ابنتي، قبلي يديه.... فقاطعها السيد الكبير قائلا بنبرة رزينة جدا :دعيها يا أم ريحانة تفعل ما تشاء...ثم تابع كلامه.أنها من رائحة الغالي، الحمد لله أنني رأيتك قبل أن أرحل عن هذه الدنيا الزائلة.... كم أشتاق إليه.... وجودك بيننا يشعرني، وأنه ما زال بيننا .في لحظة تهور قاتلة، وهي تستمع لحديثه،انتباتها وسوسات لشيطانية، كادت معها أن تصارحه بأن آخر ما يهمها هو سماع مشاعره المزيفة، وأنها هنا من أجل ثروته التي ستبني بها المستقبل الذي تحلم به، لكنها في اللحظات الأخيرة كبحت مشاعرها، وأخرجت لسانها قبل التفوه بأي حماقة قد تفقدها كل شيء، واصل حديثه عن طفولة والدها الشقية وعن شبابه المتمرد، كان الشوق والحنين واضحا في نبرات صوت العجوز كما تحب أن تلقبه بينها وبين نفسها، وكانت بين الفينة والأخرى ترسل له ابتسامة مخادعة، استرسل طويلا في الحديث حتى أدمعت عيناه المائلتين للون الرمادي، فانتباتها أحاسيس غريبة نحوه، لم تستطع أن تجد لها أي تفسير، فنظرت إلى المحامي بحيرة باحثة في عينيه عن سر هذا العجوز، لتقرأ بداخلهما ابتسامة كبيرة - .أطال الله في عمرك يا عمي، لترانا كما تتمنى وتريد.

تدخل الشاب الصارم المجاور لمقعده في يمينه قائلا بصوت خشن ورخيم - .لقد أصبحت عجوزا يا صلاح، إنه زمنكم، لا أتمنى من هذه الدنيا سوى رؤية أولادكم، وألاعبهم قليلا قبل أن أغادرها، فتدخلت السيدة عائشة بنبرة هادئة: الحمد لله، الآن لديك حفيدان، وإن شاء الله سوف يرزقك الله الصحة لترى أحفادك أيها الحبيب .أحست سارة بالرهبة، وهي تتأمل هذا الشاب الذي وافقت على الارتباط دون أدنى معرفة به، بدا لها أن هناك عَلاقة وطيدة تجمعه بالرجل العجوز، حاولت أن تتفادى النظر إليه، لكنها فشلت وكان للقدر رأي آخر، كان أطول منها قامت، أسمر البشرة ذو عينين سوداويين حادتين، في أواخر الثلاثينيات من عمره، أنيق في بذلته الرسمية السوداء، وسيم لدرجة فاتنة، نحيف الجسد وذو تقاسيم متعجرفة وغامضة، كانت كل نظراته وتصرفاته نحوها تدل أنها غير مرغوب فيها بينهم .كان ترحيب العائلة بها باردًا كالجليد خاصة بعد معرفة صلة القرابة التي تربطها بالسيد الكبير، باستثناء السيدة عائشة وابنها يُوسُف، فقد كانت أغلب الابتسامات مزيفة، جعلها تدرك ولأول مرة أنها موجودة بالمكان الخاطئ، وفي الزمن غير المناسب، كان يُوسُف الأقرب إليها منهم، يقاربها طولا وعمرا، قمحي الوجه وعسلي العينين، ونحيف الجسم، وبلباقة رحب بها، دون أن يلامس يدها، بدا لها أنه بروتوكول رسمي وإحدى قواعد الأسر المحافظة بالمجتمعات الشرقية، فهي وَسَط بيئة متدينة بمعتقد ما تطبق أي شيء منه، فهي ليست مسلمة إلا بالوراثة، اعتادت الحرية المطلقة وارتياد المراقص الليلية وارتشاف بعض الأنواع من الخمور

الفاخرة والتسكع على الشواطئ الأوروبية بملابس شبه عارية .بعد نهاية وجبة الصباحية، رافقتها عمتها السيدة عائشة للغرفة المخصصة لها، التي كانت قريبة لغرفتها، بأحد أجنحة القصر بالطبقة العليا، استلطفتها سارة كثيرًا، حاولت السيدة عائشة أن تشعرها في كل لحظة تمر عليها أنها جزء لا يتجزأ منهم، وضعت يدها على ذراعها النحيفة (وهي تفتح لها باب الغرفة) ثم أردفت بنبرة غريبة - :مرحبا بسيدة القصر العاجي بيننا، أتمنى لك قضاء فترات سعيدة معنا، الحياة نوعا ما صعبة هنا بالمقارنة مع مدينة لندن الساحرة، لكن بالحب تصبح أسهل وأجمل، ثم رسمت قبلة ناعمة على خدها الأيمن و تركتها بمفردها لترتاح قليلًا.

أحست سارة بالغرابة من اللقب الجديد الذي لقبتها به السيدة عائشة، فآخر همها أن تصبح إحدى سيدات هذا القصر الواسع، أحست وكأن كلامها لم يأت بمحض المصادفة، وكأن العمة تلمح لها بأن القادم سيكون أسوء مما كانت تتوقعه. أغلقت عليها باب الغرفة بإحكام، ثم رمت بجسدها المنهك على السرير الواسع الذي كان يتوسط غرفتها الشاسعة المساحة، ذات نوافد البلورية التي تطل على حديقة ساحرة بأولوانها و وروائحها وأشكالها المختلفة وكأنها لوحة تشكيلية لفنان، تضمنت أنواع مختلفة من النباتات والشجيرات والورود النادرة، أما ألوان الغرفة فهادئة للبصر، تمازجت ما بين اللونين الأبيض والسماوي، ويتزين سقفها بثلاث ثريات غريبة الشكل و باهظة الثمن، وبجانب السرير مكتبة صغيرة، تحتوي بعض المجلدات باللغة العربية والإنجليزية، وزينت الغرفة بثلاثة كراسي أنيقة تتوسطهم مائدة زجاجية مستديرة عليها مزهرية مليئة بورود البنفسج، بالرغم من سحر وهدوء المكان، فقد انتباتهاطاقة سلبية كلما تذكرت اللعبة التي أقحمت نفسها فيها، أحست برهبة كبيرة، لم تفارقها للحظة تلك النظرات الشريرة لأم ريحانة وشقيقتها الأرملة،كانت نظرات سامة مليئة برسائل الوعيد والتهديد بتحويل حياة أي كان لحياة الجحيم، لم تنس تلك التعابير المنذرة لها بالخطر من الرجل الذي اختاره القدر ليكون جزءًا من حياتها مدّة من الزمن، فتمنت لحظتها لو لم تكن هنا، فِراسَتها لم تخذلها يومًا في قراءة ما وراء الوجوه، و فهم ما تخفيه العيون، فهي هِبَّة ربانية أنجتها من مصائب كثيرة في حياتها، رأت بعينيه كلاما كثيرا

لم يجرأ أن يفصح عنه لها علانية، أحست وأن الرجل يعلم بكل تفاصيل المسرحية، فأشفقت على نفسها وعلى حلم العجوز المسكين الذي لن يتحقق.

04 تقاليد يجب احترامها

لم تغف إلا مع بزوغ الفجر... ولولا تلك الدقات القوية على باب الغرفة ...لاستمرت في سبات طويل، فتحت عينيها بصعوبة، لتجد نفسها ما تزال بملابس السفر، أسرعت بالنهوض وفتح الباب، فوجدت أمامها السيدة الطيبة خدوج مع ابتسامة ترافقها، تأملت سارة جيدا، فلاحظت الهالات السوداء المنتشرة تحت عينيها، فتأكدت أن الضيفة الجديدة لم تتذوق طعم النوم، فخاطبتها (بنبرة حنونة: إنه وقت العشاء يا ابنتي، لم أشأ إيقاظك لكن...

- لقد كنت مرهقة جدا بسبب السفر.... أهذه الوجبات العائلية مقدسة، يا سيدة خدوج؟
- بل. ناديني بالدادة خدوج.

فهمت السيدة خدوج ما ترمي إليه، فأجابت مفسرة: كل شيء بميعاد داخل هذا القصر، وتعد الوجبات الصباحية والمسائية وجبات مقدسة عند عائلة العاجي، فالسيد الكبير يحب رؤية عائلته مجتمعة ومتحابة وهي تحيط بالمائدة، لكن عندما يكون غائبا، فهنا يمكن تكسير كل القيود.

همست سارة في نفسها: لاإذن فلا مفر من المواجهة

- أقلت شيئا يا بنيتي؟
- لا شيء يا دادة، سأنزل بعد قليل.
- حسنا يا بنيتي، حتى لا أنسى، لقد اتصلت بك فتاة من بريطانيا تدعى كارلا، وطلبت منك أن تتصلي بها في أقرب وقت.
- شكرا لك.

تسمرت مكانها من كثرة الصدمات التي تلقتها في أول يوم لها بهذا المكان، جعلتها تنسى حتى الاتصال بصديقتها الغالية كارلا حتى تطمئنها على حالها، نظرت مليا نحو المرآة المقابلة لها، فانعكست لها صورة فتاة شاحبة

الوجه وذابلة العينين تشبهها، عندها أحست بالرهبة من الحالة التي صارت عليها، فأسرعت نحو الحمام من أجل الاستحمام واستعادة البعض من طاقتها المفقودة، لم يستغرق الأمر إلا دقائق معدودة لتعود من جديد لنشاطها المعهود، وبعد أن ارتاحت قليلا، فتحت حقيبتها الصغيرة التي حملتها معها، و ألقت نَظرة خاطفة على كل ملابسها، التي كانت أغلبها مكونة من سراويل من الجينز الضيق و بعض لفساتين القصيرة، فاختارت أطول فستان تملكه وارتدته، لكنه على الرغْم من ذلك لم يخف إلا القليل من جسدها، وأضفى بلونه الزهري الفاتن سحرا على وجهها الدائري الصغير والساقين الشقراوين النحيفتين، وتركت شعرها القصير الأصهب مموجا ومسترسلا على كتفيها، ثم لونت عينيها الرماديتين الواسعتين بقلم أسود،و أضافت بعض الحمرة الناعمة على خديها، ورشت القليل من العطر على ثيابها ، بعد الانتهاء تأملت طلتهاالأخيرة في المرآة فابتسمت لنفسها بمكر، إنها أول مرة تقع في موقف كهذا ولكن ليس أمامها أي حل ...وهي غير مجبرة على التضحية بكامل حريتها من أجل إرضاء الآخرين، ولا يمكنها عيش حياة غريبة عنها.

وصلت إلى القاعة المخصصة للطعام، فوجدت كل أفراد العائلة باستثناء السيد الكبير، يحيطون بمائدة مليئة بأصناف متنوعة من المأكولات الشعبية، وكانت من بين الحضور زائرة لم تعرفها، كانت مليحة الوجه، طويلة القامة، تغطي نصف شعرها البني الناعم والمسترسل بقماش رمادي من الحرير الفاخر، كانت تقاربها عمرا، و ترتدي ثياب عصرية ذات لون رمادي فاتح مكونة من سترة وسروال واسعين، أبرز جمال عينيها العسليتين الواسعتين المرسومتين بقلم كحل رمادي خفيف، التي اختارت لنفسها كرسيا بجوار قَريبها صلاح، كانا يبدوان منسجمان بحوار عميق لدرجة لم ينتبها لوجودها، وكانا بين الفينة والأخرى يتبادلان الابتسامات على كلمات غير مسموعة، اختارت هي الأخرى كرسيا يجاور عمتها عائشة ثم جلست، أفابتسمت لها الأخيرة مرحبة بحضورها ثم مازحتها بصوت خافتت: ما هذا التوقيت يا سارة العاجي؟ -

آسفة، يا سيدتي.

- لا تعامليني بهذه الرسمية يا فتاتن فأنا عمتك.

أحنت سارة رأسها معتذرة، فهي لم تتعود بعد على مثل هذه الأجواء العائلية، فحياتها الاجتماعية كانت شبه معدودة العلاقات. فحتى الزوجين البريطانيين اللذان استقبلاها في بيتهما بعد وفاة والديها، كانت تناديهما باسمهما الأول فقط.

وفي تلك الأثناء انتبه ابن عمها لوجودها وبعد أن تأملها بجرأة، خاطبها بوقاحة: أنت امراة مثيرة للغاية يا إبنة العم.

شعرت سارة بالإحراج، فلم يسبق لشخص حديث العهد بمعرفتها أن مازحها بهذه الجرأة، اكتفت بالصمت، في الوقت الذي توجهت فيه كل النظرات نحوهما، فظهرت علامات الانزعاج على زوجها المستقبلي، فأرسل له بعينيه رسائل تحذيرية، كأنه يَحثه على المحافظة على اللياقة واحترام الجميع، فما كان من الأخر الذي فهم الرسالة إلا الصمت، لكن الزائرة الحسناء لم تشأ أن ينتهي الحديث إلى هذا الحد، فتدخلت موجهة حديثها لصلاح: هل هذه قريبتك التي أخبرتني عنها يا صلاح؟

فابتسم يوسف بخبث، وبنبرة ساخرة أدرف قائلا: لقد تعودنا منك يا سيد صلاح الجدية وقلة الثرثرة، هيا يا لالة غيثة الجميلة، أخبرينا بوجهة نظر صلاح فينا،

أحست الآنسة غيثة بالإحراج، وقبل انت تتفوه بأي كلمة، تدخل صلاح بنبرة غاضبة: كفاك ترهات يا يوسف، ما هذا الكلام الساقط؟ لالة غيثة ليست كباقي الفتيات العابثات، تمازحهن بسهوله وقتما تشاء.

ضحك يوسف وأجاب :حسنا أيها المدير، ولو أنك اخطات بحقي، فالفتيات التي أعرفهن محدودات العدد.

فعلق صلاح قائلا: يبدو أن ذلك الملعون قد غيب عقلك مجددا.

اكتفت الزائرة الحسناء بالصمت، مدعية العفة والوقار أمام كل أفراد عائلة العاجي، في حين أحست سارة بالإهانة من الخطاب الذي وَجهه السيد صلاح ليوسف، الذي كان مليئا بالألغام وكأنه يستهدفها بشكل شخصي، لكنها فضلت الصمت حتى لا تدخل في جدال عقيم معه، فعاد الهدوء من جديد لمائدة العشاء، فسرقت نظرة خاطفة لصلاح وضيفته، فشعرت أن هناك كيمياء فريدة بينهما، فالود البادي عليهما، يمكن أن يخفي حبا بين الطرفين، وربما مجيئها إلى هذا القصر قد أفسد الأمر.

في الوقت الذي لم تستطع عمتها عائشة العاجي إخفاء توترها وخجلها من التصرف المتهور لابنها أمام أفراد عائلة العاجي، وحتى تبعد عيون الشامتين فيه، غيرت مجرى الحديث، من خلال الحديث عن العطور التي تنتجها عائلة العاجي. نجحت خطتها بشكل جزئي لبعض الوقت، فاستغلت سارة تلك الفرصة، لتعلن انسحابها متمنية لهم عشاءا طيبا، مما جعل السيدة عائشة تخاطبها متسائلة :لم تأكلي شيئا يا ابنتي .

- لست معتادة على الوجبات المسائية الدسمة.

وهنا قاطعتها الزائرة الحسناء بنبرة ماكرة؟ -

كم هو جميل قوامك المنحوت، حتى أنك تذكرينني بعارضات الأزياء بالمجلات العالمية، أليس كذلك يا صلاح؟

لم تعجب هذه التلميحات عائشة العاجي، فأردفت مصححة حديث الزائرة: بالطبع، فسارة جميلة جدا من كل النواحي، لكن هذا التشبيه لا يليق بسيدات قصر العاجي المحافظات.

- اعتذر إليك يا لالة عائشة، لم أقصد الإساءة للآنسة سارة و لا للعائلة الكريمة.

صدمت سارة بكلام الضيفة الحسناء وردة فعل العمة الغاضبة، فالأولى أصابت الحقيقة، والثانية أصابتها الغيرة على شرف العائلة، ورفضت تقبل أو حتى تخيل أحد من فتياتها كعارضة للملابس الفاضحة، فلم تُعلق على الحوار، وفضلت المغادرة قبل أن تناقش مواضيع أخرى تخص حياتها الخاصة.

أثناء صعودها السلالم المؤدية لغرفتها بالطابق العلوي، أوقفتها ابنة السيدة خدوج وبيدها الهاتف المحمول وهي تخبرها أن صديقتها الإنجليزية على الخط، تنتظرها، أخذته منها وأسرعت به نحو غرفتها، وأقفلت عليها الباب بإحكام، ثم رمت بنفسها على السرير وهي تصرخ باكية في سماعة الهاتف: لقد اشتقت لك أيتها الشقراء، لو تعلمين كم أحتاجك إلى جانبي؟ -لما تبكين يا الرمادية العيون؟ لم يمر سوى يوم واحد على وجودك بينهم، هل أذاك أحد؟ ... هيا أخبريني .فسردت لها سارة كل ماحدث لها منذ وصولها إلى هذا القصر وعن الصفقة المشؤومة التي أبرمتها مع الشيطان في وقت زمني قياسي، فصعقت الأخيرة بتصرفها وصرخت بها قائلة :أمجنونة أنت؟ ما كان عليك أن توافقي على هذه الصفقة، لن تستطيعي أن تستحمليه، إن ذلك الرجل أصعب إنسان يمكن أن تصادفينه، لقد تسرعت يا صديقتي...كان عليك الاتصال بي قبل اتخاذ هذه الخطوة المصيرية.

- ماذا تعنين بذلك؟ أرجوك لا تخيفيني أكثر.

- بعد أن أول يوم من اتصال محامي عائلة العاجي بك، قمت ببعض التحريات عن عائلتك، وللأسف لم تصلني المعلومات إلا بالأمس، لقد أخبرني المتحري أنها عائلة ثرية جدا ولها سمعة مرموقة في البلاد، لكنها تقليدية جدا، أخشى أن تعيشي أسيرة ومقيدة في هذا القصر.

- ربما، لكنني لن أخضع لهم يا عزيزتي في كل شيء، سأضحي بسنة واحدة من حياتي مقابل تحقيق مستقبل زاهر لنا، هذه فرصة لن تعوض مهما حصل.

- حسنا، لكن ماذا عن جون؟ ماذا لو علم بمكان تواجدك؟ كان عليك حل جميع مشاكلك معه قبل الدخول في أي مشكلات أخرى.

- لا تقلقي، قريبا، سأدفع له كل ماله.

- أتمنى ذلك، ولو أنني صرت خائفة عليك أكثر مما مضى

- لا تخافي، لن يكون زواجا حقيقا يا كارلا، إنه مجرد صفقة ليس إلا .

- لكنك غير مجبرة عليه يا رمادية العينين... لا أريد أن أرى دموعا في عينيك...يكفي ما مر بحياتنا من آلام .

- لن يحدث ذلك، أعدك وفجأة سمعت دقات على باب غرفتها ...هناك من يطرق باب غرفتي.سوف أودعك الآن.

- حسنا...سأتصل بك لاحقا. وهذا رقمي الجديد.فليحمك الله .

ما أن فتحت باب غرفتها، حتى فوجئت به أمامها، بطوله الفاغر ولباسه الرياضي، وبصوت هادئ خاطبها: هل يمكننا أن نتحدث؟

- بالطبع. تفضل.

بدا غير مستغرب من السماح له بدخول غرفتها في منتصف الليل، حتى تتجنب تشويه صورتها أكثر بالنسبة له، تركت الباب مفتوحا خلفهما، وضع يده اليمني في جيب سرواله الجينز الواسع وقال بنبرة صارمة: حسنا.أعتقد أن السيد إبراهيم قد أخبرك أننا عائلة محافظة، وأن لدينا مجموعة من المبادئ والقواعد التي يجب لكل أفراد عائلة العاجي وأصدقاؤنا احترامها .

- بالطبع. وأنا احترم خصوصية كل مكان أوجد به.
- لكن ما رتدتيه هذه الليلة لا ينم على ذلك، ولا يشرف أي سيدة من سيدات قصر العاجي الفضليات.

لم يعجبها قوله، فسألته بنبرة ساخرة: وما هي نوعية الملابس التي تريدني أن أرتديها لكم، يا سيدي

لم يعجبه أسلوبها الساخر منه، فرد عليها بنبرة قاسية: المرجو منك التحلي ولو بالقليل من الفضيلة خلال المدة التي ستمكثينها بيننا، وريثما تغادرينا فلك مطلق الحرية أن تمشي حتى عارية لو شئت ذلك .

- لن أسمح لك بإهانتي بهذا الشكل، كان يمكن أن تكون كلماتك أكثر لباقة حتى أفهم ما تريدون مني. وعموما لقد فهمت الرسالة.
- للأسف، فأنا لا أجيد العبارات المزكرشة، عموما لم يكون هذا هدف زيارتي الأساسي لك، جئت أعلمك أن موعد زواجنا بعد شهر، وخلال الأسبوعين المقبلين ستبدأ كل التحضيرات لمراسيم حفل الزفاف.
- أعتقد أنني طرف في هذه الصفقة ولست دمية يتم تحريكها كما تشاؤون.

- أظن أن السيد إبراهيم قد وضح لك كل الشروط، ووافقت عليها بكل طواعية.
- أجل، لكنني غير مستعدة بعد لهذا الرباط المقدس

تأملها باستهزاء، وبنبرة صارمة متسلطة، علق على حديثها: عن أي استعداد تبحثين!؟ اسمعيني جيدا، إذا كنت تريدين نصيبك من الميراث، فيجب ألّا تجادلي في أي شيء، وإذا لم يعجبك الأمر فلترحلي لبلدك،

- ماذا؟
- أريد جوابا واضحا وفوريا.
- أعتقد أنني لن أرفض أي شيء قد يعجل لي بالرحيل عن هذا القصر ومعي المال.
- حسنا، هذا جيد، وهناك بعض الشروط التي لن أتنازل عنها، بعد التوقيع على هذا العقد المزيف، لن أسمح بأي تصرف قد يمس سمعتي وكرامتي بين الناس...تصبحين على خير، ثم رحل قبل يمنحها حق الرد.

استفزتها تلك الطريقة الوقحة التي عاملها بها، جعلها تحس كأنها امراة رخيصة جاءت لتدنس وتُهين شرفه وشرف العائلة، كانت تشعر بأنه رجل صعب، لكنها لم تتوقع أن يفصح عنه نفسه بسرعة بأسلوبه القاسي والعنيف معها. الشيء الواضح لها من خلال كل تصرفاته لهذه الليلة، يدل على أن الرجل قد رسم عنها صورة قبيحة في مخيلته الواسعة، هذه العجرفة التي خاطبها بها جعلتها تقرر أن تتركه على جهله بها، فهو لا يمثل أي شي بالنسبة لها، مجرد وسيلة للوصول لتلك الثروة ثم الرحيل عن هذا القصر الملعون دون عودة .مر أسبوع بلمح البصر على إقامتها بقصر عائلة العاجي، وحل يوم جديد، ليعلن السيد الكبير عن قيامه برحلة عمل هو صلاح لخارج البلاد لمدة أسبوع، فكانت فرصة لها للابتعاد قدر الإمكان عن أجواء الجلسات العائلية المؤذية لنفسيتها والانزواء بين غرفتها الخاصة نهارا والتمتع بحديقة القصر الواسعة مساء، لم يعترض أحد على قرارها وتركت لك مساحتها الخاصة، وظلت السيدة عائشة بين الفينة والأخرى تتردد إليها بزيارات لغرفتها للاطمئنان علي أحوالها، و في كل أمسية كانت تأخذمعها فنجان الشوكولا الدافئة التي تعده لها الدادة خدوج وهي متجهة إلى حديقة القصر، لتستمتع بالأجواء المسائية الربيعية.

ذات ليلة، بينما هي جالسة على أحد الكراسي المصنوعة من الرخام، ترأى إلى مسمعها صوت رجولي مألوف لها يخاطبها بنبرة مترددة: لو تعلمين كم أحس بالخجل من الوقاحة التي تعاملت بها معك تلك الليلة، صدقيني، لم أكن بكامل وعي. فأنا كما يعلم الجميع مجرد رجل سكير مدمن.

تعرفت على صوت مخاطبها، الذي لم يكن سوى صوت يوسف ابن عمتها عائشة، صدمت من صراحته الشديدة، بدا الندم واضحا بعينيه عندما أصبح أكثر قربا منها، أحست بالشفقة عليه، فهي قد اختبرت الإدمان قبله وتعلم صعوبة مقاومته، بقيت للحظات تتأمل فيه، وهذا ما جعله يضيف بنبرة متوسلة: أنا مستعد أن أفعل أي شيء لتسامحيني.

رق قلب سارة نحوه، وأحست بصدق حديثه، وحتى تريح ضميره الذي يؤنبه، أردفت قائلة: أمتأكد أنك ستفعل أي شيء من أجلي؟

وبنبرة جادة أجاب: أجل، أي شيء تريدين.

ابتسمت له، وأردفت قائلة: أريدك أن تكون مرشدي للتعرف على منطقة إمليل والمناطق الجبلية الأخرى لمراكش.

كان لكلماتها الأثر الطيب في نفسه، حيث تغيرت أسارير وجهه العبوس وعادت البهجة له، ودون أدنى تفكير وعدها بأن يكون الدليل المرشد بكل جولاتها الاستكشافية اللاحقة.

05 العروس المنبوذة

على أصوات دقات طبول الفرح فتحت عيناها، لتجد عمتها بغرفتها مع أربع سيدات ضخمات البنية يرتدين ملابس تقليدية مزركشة الألوان، قدمتهن لها على أنهن المزينات اللواتي ستكلفن بكل زينتها من ملابس ومكياج، وطلبت منها الامتثال لهن في كل صغيرة وكبيرة، حتى تطل بأبهى صورة لها في هذا اليوم الاستثنائي لأي عروس، وأخبرتها أن الحفل سيقام بحديقة القصر الكبيرة، وسيحضره عدد لا بأس من الضيوف، ثم انسحبت تاركة المزينات معها، وبينما هن منشغلات بتحديد القفاطين التي سترتديها لهذه الليلة، دخلت سارة في حالة شرود طويل متحسرة على حالها، فكل شيء يمر أمامها بشكل سريع، والجميع سوف يكون حاضرا في ليلة زفافها، ليزفوها لرجل لا تكن له أي ذرة من الحب، ولزفاف سريع لم تخطط حتى لأبسط تفاصيله، ولن يتحقق حلمها بارتداء فستان زفاف على الطراز الأوروبي، عاري الصدر والكتفين، ولن تراقص حبيبها على موسيقى رومانسية كلاسكية لخوليو كما تمنت، وفي تلك الأثناء انفتح باب الغرفة بقوة جعلتها تعود إلى واقعها، ثم دخلت منه المربية خدوج وبين بيديها صينية نحاسية صغيرة فوقها فنجانا من اللويزا المهدئة، ثم طلبت منها بحنان أن تشربه دفعة واحدة حتى تختفي تلك الشحوب الواضحة إلى حد بعيد على وجهها البيضاوي الصغير، وذكرتها بأن هذا أهم يوم في حياة أي عروس شابة، وأنه سيكون متعبا بالنسبة لها، فأخذته منها سارة واحتسته كاملا، ثم بعد تلك الاستراحة القصيرة عادت المزينات لعملهن، وساعدتها إحداهن على ارتداء قفطان أنيق مكون من قطعة واحدة ذو لون أخضر جميل ومطرز بإتقان بخيوط ذهبية، لكنه كان مغلقا بإحكام شديد غطى كل جزء من أجزاء جسدها النحيف، وزُيِّنَت بمجموعة من الإكسسوارات التقليدية الذهبية، واقترحت إحداهن عليها الاكتفاء بمكياج خفيف، حتى لا تختفي ملامح وجهها الجميلة، ما أن انتهت المزينات من اللمسات الأخيرة، حتى دخلت العمة عائشة الغرفة، ولما رأتها بدا الانبهار والتأثر عليها واضحين وصارحتها قائلة: تبارك الرحمن، تبدين كالأميرات وكأن هذا القفطان قد صُمم لك، مع أنه تراث عائلي قديم... لقد كان السيد الكبير محقا بأن ترتديه في هذه الليلة

المميزة لنا جميعا، لقد ارتدته أمي مرة واحدة في ليلة عقد قرانها من والدي، فكان فأل خيراً عليهما، وعلى عائلة العاجي.

أحست سارة بتأثرها الشديد، فأجابت قائلة: أنا آسفة، يا عمتي، لأنني ذكرتك بجدتي. لي الشرف أن أرتدي القفطان الذي ارتدته، لقد كانت أنيقة جدا وذات ذوق فريد.

- أريد أن أُقبلك، ولكن أخشى أن أخرب زينتك، لكنني لن أحرم نفسي من معانقتك في يوم كهذا.

كانت سارة بحاجة إلى هذا العناق الدافئ في ظل التوتر الذي تحس به، وخوفها من المجهول الذي ينتظرها، تمنت لو كانت أمها بجوارها لتساندها، حتى لو كانت مجرد تمثيلية مزيفة، أحست العمة عائشة بما يخالجها من أحاسيس، فاحتضنت يدها بشدة حتى تطمئنها.

بعد ان وضعن المزينات التاج الذهبي على رأسها، وغُطي وجهها بوشاح ذهبي خفيف، نزلت سارة على سلالم القصر باتجاه حديقة القصر المزينة بشكل لافت، تحيط بها مزينات الحفل على أنغام وموسيقى شعبية تراثية من المنطقة، كان عدد الضيوف الحاضرين كبيرا، تبدو من خلال هيئتهم أنهم من علية المجتمع المخملي في البلد، ما أن انتبهوا لها حتى

علت التصفيقات تحية لحضور العروس، ثم ساعدتها المزينات على الجلوس بالمكان المخصص للعرائس، الذي كان مزينا بشكل مترف، كان السيد الكبير أول المتقدمين منها، يرافقه زوجها المستقبلي بلباسه التقليدي الجميل، الذي جعله كأمير من أمراء الشرق الأسطوري، وعلى أهازيج الفرح قام السيد الكبير بإزالة غطاء وجهها ليقبل جبينها متمنيا لها الحياة السعيدة والذرية الصالحة، بعد ذلك ا قام زوجها بنفس الخطوة، ثم غُطى وجهها مجددا، وجلس بالمقعد المُخَصص له، كأنه برتكول يجب الالتزام به في هذه الأعراس، فجأة، انتباها إحساس غريب، وهي ترى دموع السعادة البادية على وجه السيد الكبير المنير، أحست بالشفقة عليه؛ لأنها مجرد صفقة لها مدة صلاحية، وبدأت خطوة خطوة تعتاد الأجواء، أرادت أن تعيش هذه اللحظات المزيفة، التي لن تظل سوى ذكريات بعد رحيلها، ثم دنا منها صلاح أكثرفأكثر، وابتسم ابتسامة مزيفة وبنبرة صارمة محذرة: بعد قليل سوف يُعقد زواجنا.

أحست وكأنه يحذرها من ارتكاب أي خطيئة في أثناء هذه المراسيم، فأضاف بصوت منخفض: لا نريد سماع تعليقات أو تلميحات تخص هذا الزواج، الصورة التذكارية التي سوف تلتقط لنا سوف تنتشر في كل المجلات الكبرى... أرجوك.ابتسمي.... لكنها فاجأته بالقول: لقد تسرعنا بهذا القرار....

لقد تأخر الوقت كثيرا، كما وأن السيد الكبير بعد يومين سوف يسافر إلى المدينة المقدسة. من الأفضل أن ننهي هذه المسرحية بدون خسائر عاطفية ومادية أكبر. اتفقنا.

-أنا لا أفهم كيف أقنعت جدي بهذا الزواج.

رد بنبرة متذمرة: لأنه بكل بساطة، يعتقد أنك حبيبان.

-هل تعني أنه لا يعلم أي شيء؟ ولكن من هو صاحب فكرة هذه الصفقة... هل هذا يعني أننا نحن نخدعه؟

وبنبرة ساخرة أردف قائلا: أرجوك، كفاك تمثيلا.

أحست بتأنيب الضمير يلاحقها وبنبرة متوترة أردفت: أرجوك، لا أريد خداع أحد.

وبنبرة يعلوها التهديد فاجأها: لقد فات الأوان الآن، إذا تجرأت وقمت بأي فضيحة هذه الليلة، سوف تندمين خلال ما تبقى من حياتك.

في تلك اللحظات، شعرت بخوف رهيب منه، وفجأة، دنا منهما السيد الكبير ليخبرهما بوصول موثق عقود الزواج، ثم اقترب من سارة أكثر، وبصوت ناعم وَشوشَ بأذنها قائلا: إذا كان لديك أدنى تردد، يكفي أن تخبريني وسيتوقف كل شيء على الفور.

نظرت إلى عيني السيد الكبيرالمترقبتين، ثم انتقلت بعد ذلك لعيني صلاح الحادتين، فتذكرت الحوار الذي جرى بينهما، أدركت أن الوقت قد تأخرعن أي تراجع منها، فقبلت يد العجوز، ثم أخبرته بصوت خافت بأنها راضية بهذا الزواج، فابتسم لها وقبل جبينها متمنيا لهما الحياة السعيدة والذرية الصالحة.

بعد توقيع عقد قرانهما، انطلقت الأفراح التي لم تتوقف إلا بعد منتصف الليل، لتجد نفسها بين جدران غرفة واسعة وحيدة وبلقب جديد.

استغلت غيابه، وغيرت فستان زفافها وأزالت كل زينتها، ثم انتظرت قليلا ليس اشتياق له، بَل حتى تقرر معه حياتهما القادمة، لكن التعب والإرهاق كان هو المنتصر، فغفت بعمق.

لولا تلك التحركات القوية بغرفتها ما كانت لتستفيق، فتحت عينيها فوجدته أمامها، يرتب حقيبة سفره بطريقة عصبية، كان الإرهاق باديا على وجهه، كأنه لم ينم لحظة واحدة، ما أن انتبه لها حتى خاطبها بنبرة آمرة: رتبي حقيبتك.

وبنبرة مستغربة سألته: ولماذا؟!

فأجاب بنبرة كلها استهزاء وسخرية: سنسافر يا حبيبتي، سنذهب لقضاء شهر عسلنا.

- عن أي شهرعسل تتحدث يا هذا! إن شهر العسل مخصص للعشاق فقط.
- أنتظرك في السيارة (انسحب حاملا حقيبته خارج الغرفة).

بدا لها من نبرة صوته أنه بالكاد يستذوق حديثها، أشعرها بأنها بالنسبة له مجرد هم تقيل على قلبه، لم ترد أن تجادله أكثر، فأكثر ما تريده مع هذا الرجل هو عقد معاهدة سلام، حتى ينتهي كل شيء بسلام.

استغلت لحظة انسحابه لتغير ثيابها، فبحثت في خزانتها التي كانت تضم فقط الفساتين الطويلة، فاختارت لنفسها فستانا زهريا، وتركت شعرها مربوطا، وأثناء تزيينها لوجهها، وجدته خلفها كالشبح ينظر إليها نظرات تدل على نفاذ صبره، ثم غادر المكان مسرعا من دون أن يبادرها بأي كلمة، فحملت حقيبتها الصغيرة فورا، وأسرعت باللحاق به.

كانت الساعة تشير إلى الخامسة صباحا عندما انطلقت سيارة المرسيدس السوداء التي تقلهما، وكان هو سائقها، بينما هي كانت جالسة في المقعد الأمامي المجاور له ، ظل طوال الطريق مركزا نظره على سير الطريق، مرً كل شيء بسرعة، ما أن استوعبت كل ما حصل لها في هذين اليومين، تأكدت أنها ورطت نفسها بلعبة خطيرة، استفزها صمته، فحاولت أن تفهم ما يحصل، وإلى أين يأخذها؟، نظرت باتجاهه فرأت في تعابير وجهه بعض الحنق، فأسندت رأسها على وسادة كرسيها، موجهة ناظريها إلى ما وراء نافذة السيارة، ثم شردت في تفكير عميق، تقارن بين الرجل التي كانت تحلم بالاقتران به وبين هذا الرجل الغريب الذي فرضه القدر عليها، فجأة رن هاتفه مقاطعا شرودها، فرد على مخاطبه (بصوت هادئ ذو نبرة لطيفة): بعد نصف ساعة سأكون هناك.

لم تتمكن سارة من معرفة المتصل ولا فهم تفاصيل المحادثة الهاتفية التي جرت أمامها نظر لقصر طولها، لكن جُل ما تأكدت منه أنهما صارا على مقربة من مقصدهما المجهول بالنسبة إليها.

كانت المنطقة التي وصلا إليها قرية جبلية، وطريقها مليء بالمنعرجات، ورائحة الصنوبر والورود تغمر الأجواء، وفجأة توقفت السيارة أمام كوخ صغير، ودون أن ينطق أي حرف، نزل من سيارته، فتبعته، ثم أسرع لحقيبة السيارة، وأخرج حقيبته وبنبرة ساخرة خاطبها: أهلا بك في منزلك.

تأملت الكوخ بشكل سريع من الخارج، فصرخت غير مصدقة: يا إلهي، هل سنقضي شهر العسل بهذا المكان؟ لم يعر لصدمتها أي قيمة، وأضاف: هذا هو منزلي، أما ذلك القصر فهو منزل السيد الكبير... هيا الحقي بي لأعرفك عليه.

- وماذا عن حقيبتي؟

ضحك قليلا، ثم تأملها قليلا، وبنبرة خالية من العواطف أجاب" أرجوك، لا تنتظري مني حمل حقيبتك أيضا. " .

صُعقت من ردة فعله المتعجرفة نحوها، أحست وكأنه يريد معاقبتها على قرارها بالمجيء لهذا البلد، وحتى لا تثير أي مشاكل معه فعلت كما أمرها ولحقت به للكوخ الصغير، كانت جدرانه كلها إسمنتية وسقفه من الخشب الصنوبري، تتوسطه ثريا صغيرة نجمية الشكل من الكريستال اللامع، يضم غرفتين صغيرتين ومطبخ وغرفة

مخصصة للجلوس تتوسطها مائدة خشبية وكراسي من الخشب الصنوبري، قبل أن تستفسره عن المدة التي سيمكثانها فيه، رن هاتفه مجددا، فأسرع باتجاه سيارته تاركا إياها وحدها وسط جدران منزل غريب لها، استغلت الفرصة فبدأت التجول داخله، أعجبها التصميم الدائري للمطبخ وتجهيزاته الحديثة، وانبهرت بالغرفتين، حيث ضمت كل غرفة نافذة وسريرا مصنوعا بشكل تقني من الخشب الصنوبري، وخزانة صغيرة، أما الحمام فكان بعيدا عنهما ومجاوا للمطبخ، كان كل شيء منظما بشكل جميل ونظيفا يدل على أن هناك من يعتني بالمكان.

استغلت فترة غيابه عن الكوخ في التمتع بالمناظر الجبلية الخلابة المحيطة بالكوخ وبالروائح العطرة التي تطغى على تلك المنطقة.

حل الظلام، لكنه لم يأت، فأحست بالجوع والإرهاق، فتوجهت للمطبخ، فوجدت البرداة مليئة بما لذ وطاب، أكلت حتى شبعت، ثم تمددت على الأريكة، فغفت للحظات قليلة، وبعد أن فتحت عينيها نظرت إلى ساعتها فوجدتها تكاد تقترب من منتصف الليل، فتأكدت أنه لن يعود، فاختارت لنفسها إحدى الغرفتين، غيرت ثيابها، ورتبت باقي ملابسها بالخزانة، ثم رمت بجسدها على السرير كالجثة الهامدة، لكن الصوت القوي لارتطام نافذة غرفتها بفعل الرياح الربيعية القوية أفزعتها، فأسرعت بإغلاق جميع النوافذ وبإحكام، وإعادة إغلاق باب الكوخ مجددا، وعندما فتحته، وجدته واقفا أمامها كالشبح العائد من الموت، فارتدت مفزوعة إلى الخلف. فابتسم، وبنبرة مستهزئة حادثها: لم أعتقد أنك ستخافين هكذا.... أظن أنك معتادة على السهر والتسكع بملاهي لندن التي لا تنام.

فأردفت بنبرة عصبية: إلى ما تملح يا هذا؟ ولما أحضرتني لهذا المكان المعزول عن العالم؟ لو تركتني بالقصر لكان أفضل لي ولك.

وبنبرة شيطانية خاطبها: وهل هناك عروس تهجر في أيام عرسها الأولى؟ ماذا سيقولون عني وعنك.... المجتمع لن يرحمك؟

استفزها حديثه إليها، فصرخت في وجهه: لقد صدقت اللعبة يا هذا، آخر ما يهمني هو كلام مجتمعك التافه، أعدني للقصر وفورا، ولا تنس، إنها مجرد صفقة لها مدة صلاحية محددة.

حافظ على مزاجه الجيد، وأجاب بنبرة هادئة: هكذا إذن، فحتى العقد المقدس أصبح بالنسبة لك مجرد صفقة أيتها اللندية التافهة، سوف نبقى هنا، وعندما أشاء سوف نغادر.

ردت عليه محاولة استفزازه مرة أخرى: إذا كنت غير راض عن هذا الزواج، فإنه لا يعني لي شيء، إنه مجرد حبر على ورق، لدي حياة أخرى تنتظرني هناك مع الرجل الذي أحب.

ما إن أكملت حديثها، حتى تغيرت ملامح وجهه، وأصبحت أكثر شرا، وبشكل غير متوقع انقض عليها كالوحش، وهو يتمتم بنبرة قاسية: إذن، فما رأيك أن يصبح هذا الزواج حقيقيا.

عندما استوعبت ما يريد أن يفعل، قاومته بشدة وتوسلته، لكنه تجاهلها في البداية، وعندما استسلمت له تقهقر عنها مبتعدا، وهو يلعن ويشتم بكلمات نابية، ثم انصرف مسرعا بخطواته مغادرا غرفتها قبل أن يُتم جريمته، تاركا إياها في دوامة من الخوف والرهبة، أحست بقشعريرة تجتاح أوصالها، رغم ذلك حاولت لملمة روحها المكسورة، وأمام المرآة انعكست لها صورتها، فتساقطت من عينيها دمعتان، فهي لم تتمن أن تعيش في أول ليلة من أفراحها هذا المشهد الرهيب الذي عاشته توا، ولولا ألطاف الله لكانت ستترك هذه الليلة بالنسبة لها جرح لن ينسى، فلطالما حافظت على نفسها، ولطالما لُقبت بالراهبة الفريدة العينين بين معارفها المقربين، بعد أن هدأت من روعه نفسها، رمت بجثتها وروحها المنهكة على السرير، تمنت لو اللي حصل معها للتو مجرد حلم شيطاني.

حل يوم آخر، ولولا الظمأ لبقيت منعزلة بغرفتها، كانت تتمنى ألا تصادف وجهه المقيت، بدأت تخطو ببطء نحو المطبخ، فإذا بها تصطدم بشظايا قنينة زجاجية هنا وهناك وبعض القطن المليء بالدم، وإلى جانبهما بعض المجلات الممزقة المبعثرة، بدت لها المجلات شبه مألوفة لها، حملت إحداها وتحققت من محتواها، فصدمت بصورها المختلفة بملابس نوم شفافة، أحست بالخجل فانحنت لتجمعها بسرعة، ومن بعيد سمعت صوته يناديها: هيا، اجمعي فضائحك، أيتها العاهرة.

نظرت إلى مخاطبها، فإذا به واقف أمام باب المنزل والإرهاق واضح على تفاصيل وجهه، كأنه لم ينم الليل فحتى ثيابه ما زالت كما هي، يضع على أحد أصابعه ضمادة طبية، تأملته مليا فأحست بالإحراج، فتلك الصور حتى بالنسبة لها ليست بالعادية، التقطت لها خلال بداياتها المهنية الأولى، اعتقدت أن السنوات قد محتها، ولكن ها هي تعود إلى الحياة مجددا، رغم ذلك لم تغفر له سلوكه المشين معها في ليلة الأمس، فردت عليه بنبرة صارمة: بعد ليلة أمس، لن أستغرب قباحة لسانك.

لم يعجبه كلامها، فصرخ فيها: أعترف أنني ليلة أمس، كنت سأرتكب خطأ كبيراً بحق نفسي، والحمد لله أنني لم أدنسها مع عاهرة مثلك.

وبنبرة مصدومة أردفت: عاهرة...أتنعتني بالعاهرة...

-نعم، وصورك المنتشرة بكل المجلات الصفراء دليل على إدانتك.

لم ينتظر ردة فعلها، بل رمى بمعطفه الجلدي فوق إحدى كتفيه، وانسحب مغادر المكان، وهو يتمتم بكلمات غير مفهومة، فصرخت فيه بعصبية: توقف أيها الكريه، وأعدني فورا للقصر.

لكنه لم يعر لكلامها أي قيمة، وسار في طريقه، ثم أغلق الباب من وراءه، عندها انهارت باكية وهي تتمم بصوت خافت: أكرهك، أكرهك

06 موسم القطاف

انتظرت طويلا بالكوخ وصوله، حتى تنهي معه فصول هذه المسرحية الكئيبة التي وقعت على عقدها بدون إكراه، لكن الرجل لم يعد، مرت أيام وأيام أخرى على غيابه، جعلتها تجلس مع نفسها، وتُدرك أن لا شيء يستحق منها التضحية بسعادتها، فأصبحت رغبتها الآنية هي الهروب من هذا الجحيم في أقرب فرصة، ففتشت بين ثيابه عن أي خيط يوصلها إلى بر الأمان، وحاولت التقرب من نساء المنطقة، لكن المحاولات كلها باءت بالفشل، فالرجل لم يترك دليلا وراءه والجميع يخشى الاقتراب منها من دون سبب، حتى صارت كالعروس المنبوذة بينهم، فعادت مجددا لخزانته، وبينما تُحرك أحد معاطفه الجلدية القصيرة وقعت منه صورة صغيرة على قدميها، حملتها بين يديها، للتفاجأ بصورة امرأة شابة، دُون على خلفيتها بأحمر شفاه مثيرة عبارة * إلى الأبد*، ثم تأملت صاحبة الصورة مرة أخرى، فبدا لها وكأنها سبق ورأت هذه الملامح السمراء الفاتنة، لكن الذاكرة خانتها في استذكارها، كانت تعلم أنه رجل غامض، لكنها لم تتوقع أن يكون رجلا عاشقا، وفي تلك الأثناء سمعت ثلاث طرقات خفيفة على باب الكوخ، ترددت في البداية بفتحته، لكن الطارق لم يستسلم، وكأنه يعلم أن المنزل غير مهجور، تلاها صوت أنثوي يخاطبها من خلفه: سيدة العاجي، هل أنت هنا؟... سيدة العاجي... أنا فاطمة... المساعدة المنزلية للسيد العاجي.

كان ذلك الصوت بمثابة نداء استجابة لاستغاثة نابعة من داخلها، أسرعت بفتحه غير مترددة لزائرتها خاصة بعد معرفة هويتها، كانت سيدة قروية في أواسط الثلاثينيات، نحيفة الجسم، شقراء البشرة وذات عنين لوزيتين جميلتين، بسيطة في ثيابها، تُغطي كامل جسمها بحجاب تقليدي من أعلى رأسها إلى أسفل قدميها، رحبت بها

سارة كثيرا، وقبل أن تبادرها بالكلام، أخبرتها السيدة القروية أن السيد العاجي من أرسلها إلى مساعدتها بأي شي تحتاجه.

أين يوجَد زوجي الآن؟

إنه بضيعة الورود.

وماذا يفعل هناك؟

إنه موسم قطاف الورود يا سيدتي!

اعذريني، فهذه أول زيارة لي هنا، لقد عشت كل حياتي بلندن

لندن! الست السيدة غيثة؟!

- ماذا؟! بل أنا حفيدة السيد العاجي.... أه، لقد تذكرتها، هل كانت السيدة غيثة تأتي مع زوجي إلى قلعة مكونة؟

ارتبكت المساعدة المنزلية، وأردفت محاولة تصحيح خطئها: عذرا منك يا سيدتي، يبدو أنني لم أسمع جيدا إسمك من طرف زوجي ليس إلا، سوف أذهب لأنظف الغرف أولا، وأرجو أن تُدوني لي لائحة بكل احتياجاتك حتى أخدها معي وأحضرها لك صباحا.

بدت السيدة القروية متوترة جدا كأنها ارتكبت خطيئة لا تُغتفر، أحست سارة بأن هذه المرأة تعلم الكثير من أسرار زوجها، ظلت طيلة الفترة الصباحية منهمكة بأعمال المنزل، محاولة تجنب الحديث معها.

بعد إتمام مهمتها، أعدت لها فنجان من القهوة التقليدية وبعض الحلويات الشعبية المشهورة بالمنطقة، ثم سلمتها سارة اللائحة، ثم سألتها بشكل مفاجئ: وأين توجد هذه الضيعة؟

- إنها قريبة، أترين ذلك التل هناك، إنها فوقه، لكنني لا أنصحك بالذهاب إليه، المعمل في هذا التوقيت مليء فقط بالرجال، والسيد العاجي لن يعجبه ذلك، وأظنك تعرفين طباع الرجال.
- ألا يشارك النساء في موسم قطاف الورود؟
- بالطبع، لكن فقط في بعض الضيعات الصغرى، لكن الضيعة الكبرى التابعة لزوجك لا تُشغل إلا الرجال.

بعد هذا الحوار القصير، تأكدت سارة أن الجميع يَهابون الرجل الذي تزوجته، حتى السيدة القروية حذرتها من عواقب أي تصرف قد يُغضبه، الجميع يعلم بطبيعته البدائية ما عداها، رمت بنفسها للمجهول، لكن رغم ذلك قررت عدم الخضوع لقوانينه التقليدية وقيادة ثورة ضد أفكاره الرجعية بالنسبة لها.

مر شهر كامل، ولم يعد، في الوقت التي استمرت السيدة القروية تتردد عليها بين الفينة والأخرى لتفقد أحوالها واحتياجاتها، حتى صارت تحس بأنها صارت أسيرته، فبدأت تنتابها خطوة خطوة الرغبة في التحرر من هذه القيود الوهمية، فاستغلت دفء الجو، وارتدت إحدى فساتينها الأنيقة، ووضعت على شعرها حجابا شفافا لا يغطي إلا جزء منه، ثم انطلقت بمغامرة لا تعرف عواقبها نحو ضيعة الورود، كانت الطريق إليها مليئة بالمنعرجات والمنحدرات، وبين الفينة والأخرى تتعثر بحذائها الرياضي إلى أن وصلت إلى مرادها، كانت ضيعة كبيرة ذات مساحة شاسعة تقدر بعشرين هكتارا مسيجة بسور حديدي عال الارتفاع، وكانت بوابته الرئيسية مفتوحة على مصراعيها، لم يكن بجواره أي حارس، فاقتحمت المكان، لتجد نفسها وسط حقول متنوعة من الورود والنباتات الطبية النادرة، سُحرت بالألوان البهية والروائح العطرة المنبعثة منها، أحست وكأنها في متاهة من العطور، في غضون ذلك، ظهر لها من بعيد بعض الرجال الملتمين، فقررت الدنو منهم، لكن قبل أن تخطو خطوة واحدة نحوهم، أمسكت بها يدا قوية، وجرتها لأحد المكاتب فيها، استدارت لتتعرف على هوية مختطفها، فوجدته أمامها رجلاً شبه ملتم، جرها بعنف نحو إحدى الغرف التي فتحها بعنف، ثم أزال لثامه، وخاطبها بعصبية: ماذا تفعلين هنا؟ أتريدين إثارة الفضائح هنا أيضا؟

بتحد واجهته قائلة: أنا لست فضيحة أوعار لأي أحد، إذا كنت تريد معاقبتي على تدمير خططك والزواج بحبيبتك، فكن أكثر جرأة وصارحني بالحقيقة، هيا، ما بك صامت؟!، كن رجلا لمرة واحدة...

قبل أن تنهي حديثها، رفع يده اليمنى، وصفعها على خدها بقوة جعلتها تحس وكأن الأرض تدور بها، شعرت بالإهانة، فانهالت عليه بالضرب بكلتا يديها وهي تصرخ فيه قائلة: أريد أن أنهي هذه الصفقة الملعونة، أريد الطلاق وفورا.

أمسك يديها وأبعدهما عنه وهو يقول: أتظنين أنك ستتخلصين مني بكل هذه السهولة؟!

كان كلماته الموجهة إليها بمثابة إنذار لها بالعيش معه في الجحيم، أحست بالخطر، فأردفت بنبرة كلها تحد: لا يحق لك أن تسجنني في هذا القرية المهجورة، ولن أسمح لك أن تحركني كما تشاء، سأخبر جدي بكل شيء وأفضحك.

اقترب منها مجددا، وبعنف أمسكها من معصمها، وبنبرة عدوانية خاطبها: إذن، تريدين الطلاق والثروة معا وأيضا تهددينني، ألا يكفي أنني أجبرت على الزواج بامرأة مثلك؟، وكنت سترا على فضائحك اللندنية، اسمعيني جيدا، إذا قمت بأي تصرف أرعن، فسأخبر السيد الكبير عن ماضيك المشرف.

وبنبرة متألمة صرخت في وجهه غاضبة: يا لك من خبيث! لم أعد أريد أي شيء منك ولا من عائلتك، دعني، أنت تؤلمني.

كان لصراخها الأثر على نفسه، فحرر شعرها من قبضة يده، وما أن دفعها بعيدا عنه، حتى أضافت باكية: لم أعد أريد منكم شيئا، أريد فقط حريتي.

لم يكترث لدموعها، ولم يرحم ضعفها، وبنبرة قاسية: المفتاح بين يديك. ارحلي عنا.

ما أن أطلق سراحها، حتى أسرعت متسللة من باب مكتبه الواسع، كانت دقات قلبها أسرع من خطوات قدميها، وصلت الكوخ منهكة ومدمرة نفسيا، دخلت غرفتها وتمددت على سريرها، ثم بكت حظها العاثر الذي أوقعها مع وحش بشري لا يرحم، لم يترك لها خيارات كثيرة، فإما الإنصياع لقوانينه أوالرحيل خالية الوفاض، كل تصرفاته أبانت على أنها أنها قد أوقعتها نفسها مع شخصية شبه سادية، فكل شيء يمكن أن تتوقعه منه.

مر يومين على حادث ضيعة الورود، ظلت خلالها تعيش وحيدة بين أركان الكوخ الصغير وحقول الورود المحيطة بها، فابتكرت خلالها عطر جديدا أطلقت عليه اسم * مكونة*، كانت رائحته أنثوية على نحو فريد، بينما هو اكتفى بإرسال السيدة القروية لتفقد أحوالها بشكل يومي، فكانت دقاتها مألوفة لها، وككل يوم زارتها السيدة فاطمة، لكن هذه المرة بدت لها مبتهجة بلباسها المزركش وبتاج المصنوع من كوكتيل من الورود يزين حجابها، لاحظت الأخيرة علامات الحزن بعينيها، فحاولت أن تزرع فيها البهجة، فقدمت لها سلة من الورود النادرة، أخدتها منها سارة، وشكرتها ثم وضعتها جانبا من دون مبالاة بها، عندها تدخلت السيدة فاطمة قائلة:من ينبغي ألا تحزني في أول يوم من أيام الاحتفال بموسم القطاف، حتى لا تغضب منك ورود منطقتنا البهية.

-وهل تقبل ورود قلعة مكونة بوردة ذابلة بينهم؟ أنا جد متعبة، أريد الرحيل من هنا.

-ولماذا تريدين ذلك يا سيدتي؟

-هذا المكان ليس بعالمي.

-سيدة سارة، إن عالم الزوجة هو عالم زوجها، حاولي أن تتأقلمي فيه. فهو ليس بسئ كما تعتقدين.

-أنت لا تعرفين شيئا عنا، أيمكنك أن تساعديني؟

-لا أستطيع يا سيدتي.

-كل ما أريده هو الاتصال بعائلتي، لقد حاولت ولكن الشبكة هنا ضعيفة جدا.

ترددت السيدة فاطمة قليلا، ولكن عندما لاحظت مدى عمق حزنها، أشفقت عليها فأجابتها: إن الشبكة تكون جيدة فقط في ضيعة الورود، هذا كل ما أستطيع أن أقدمه لك

-متى ستنطلق احتفالات موسم قطاف الورود؟

-لقد بدأت توا، ولكن سكان قلعة مكونة لن يجتمعوا بساحة الحفل إلا ليلا، سيحضر كل أعوان السلطة والداعمين للحفل، ومن بينهم السيد العاجي، وبالتأكيد سأراك هناك لنحتفل معا.

كانت الكلمات الأخيرة للسيدة فاطمة بمثابة طوق نجاة، فقد قدمت لها المساعدة، دون أن تنتبه لذلك، لقد رأتها الفرصة الذهبية التي لا تعوض للتحرر من هذا الكابوس الذي تعيشه.

كانت الموسيقى والرقصات الشعبية ورائحة الورود الطبيعية تسود كل أرجاء القرية منذ إشراقة شمس الصباح، كان الكل سعيدا بموسم الورود رجالا ونساء وأطفال، وعندما حل الظلام، أخذت معها مصباحا يدويا، ثم انطلقت بمغامرة ليلية لضيعة الورود وهي متخفية بلباس تقليدي سبق وأهدتها لها السيدة فاطمة، وعندما وصلت هناك وجدت أمامها الحارس الليلي ببوابتها، انتظرت قليلا تفكر بحل لصرفه، لكن القدر قد سهل لها كل شيء، وفجأة دخل وكلبه الضيعة تاركا الباب وراءهما نصف مفتوح، فتسللت مسرعة بخطوات لا تكاد تسمع، فأسرعت أكثر نحو الداخل، حتى كادت تقترب من باب مكتب زوجها، وقبل أن تفتحه سمعت صدى لصوتين يتحاوران من وراء باب قاعة المكتب، كان الصوت الأول لزوجها والصوت الثاني صوتا أنثويا لم تتعرف عليه للحزن الذي يطغى على نبرته، حاولت أن تتجسس أكثر عليهما لمعرفة موضوع الحوار، لكنها لم تستطع إلا التقاط هذه العبارات.

-أرجوك يا صلاح، أجبني

-لقد تأخر الوقت.

-ألم تعد تحبني؟

اختبأت سارة في إحدى الزوايا البعيدة من الغرفة المخصصة لمكتبه الخاص، حتى لا يراها أي منهما، وفي تلك اللحظة انفتح باب غرفة المكتب ليظهر زوجها وهو يسرع في خطواته والمرأة تلاحقه كظله الذي لا يفارقه والدموع بعينيها، وفجأة توقف بالقرب من مخبئها السري، ثم وضع يدي مرافقته بين يديه وخاطبها بنبرة متوسلة: أرجوك، كفى...تعلمين أنني لا أستطيع فعل أي شيء.

-أرجوك، يا صلاح، اجعلني زوجة ثانية لك.

-أرجوك يا غيثة..كفى...إنني لا أستطيع.

ما أن تأملتها سارة جيدا حتى صدمت، لقد كانت الفتاة نفسها التي رأتها في أول ليلة لها داخل قصر العاجي ونفس صاحبة الصورة التي وقعت من معطفه، وبدأت شيئا فشيئا تتضح لها الرؤية بوجود علاقة حب قديمة بين زوجها وغيثة الفتاة المحافظة مثل ما لَقبها خلال فترة العشاء، أحست بالغضب للفرق بين أسلوب تعامله معها ومع تلك المرأة، لكنها تمالكت نفسها حتى تتمكن من تنفيذ ما جاءت من أجله، وما إن تأكدت بنفسها من عدم وجود أي أحد

آخر حتى اقتحمتها بهدوء، ثم جلست على الكرسي الخاص به، وأجرت من هاتف مكتبه الخاص اتصالا هاتفيا دوليا بصديقتها كارلا، ظل رنين

الهاتف دون إجابة، حتى كادت تفقد الأمل بالنجاة، ولكن في اللحظات الأخيرة رفعت السماعة، وقبل أن تتفوه كارلا بأي كلمة، بكت سارة بشدة مستنجدة بها فتعرفت عليها، ثم حكت لها كل حدث لها، وطلبت منها الحضور لمساعدتها قبل أن ينهي حياتها، أحست كارلا بالخوف التي يتملك صديقتها،، فخففت عنها بكلمات مطمئنة، وأوصتها بالتحلي بالصبر والهدوء وبمسايرة زوجه في كل ما يريد، ريثما تتخذ الإجراءات القانونية لترحيلها من البلد كله في القريب العاجل.

لم تكن سارة تبحث في تلك الليلة الاستثنائية إلا عن السكينة، خاصة بعد نجاحها في مغادرة غرفة مكتبه بأعجوبة، وما أن وصلت لبوابة الضيعة، حتى وجدت كلب الحارس الليلي يترصدها حتى كاد ينقض عليها لولا تدخل مالكه في اللحظة الأخيرة، وعندما تعرف على هويتها، أخبرته أنها تبحث عن زوجها، فاقترح عليها الرجل الخمسيني مساعدتها للوصول إليه، لكنها رفضت وشكرته مؤكدة أنها ستنتظره بمنزلهما.

حل اليوم الثالث من احتفالات موسم الورود، الذي سبق وقررت تمضيته كباقي الأيام السابقة بغرفتها وحيدة، ما أن حل سواد الليل، حتى تفاجأت بدقات خفيفة على باب الكوخ، تلاه صوت السيدة فاطمة القروية التي تناديها باسمها، فتحت لها الباب لتجدها بكامل أناقتها بلباس تقليدي ذي ألوان ربيعية جميلة، ويزين رأسها تاج من الورود الطبيعية، وتغطي وجهها بنقاب لا تظهر منه سوى عينيها الجميلتين المزينتين بكحل بلدي، و حاملة بين يديها ملابس تشبه ملابسها، قدمتها لها وطلبت منها ارتداءها فورا للاحتفال معا، رفضت سارة في البداية، لكن إصرار السيدة فاطمة كان أقوى.

وصلا للحفل بالسيارة المملوكة لزوج السيدة فاطمة المهترئة إلى مكان الحفل، الذي كان يفصل بين الجنسين، حيث انضم زوج فاطمة إلى الجهة المخصصة للرجال، بينما أخذتها السيدة فاطمة للجهة المخصصة للنساء، كانت تعلم أن من الصعب التعرف على هويتها في هذا اللباس التقليدي الذي أخفى حتى وجهها، كانت الاحتفالات في لحظاته الأخيرة كما أخبرتها السيدة فاطمة، والتي في العادة تنتهي باختيار لقب ملكة جمال الورود، التي تتسابق عليه كل فتيات المنطقة والمناطق المجاورة، وفي تلك اللحظة نادى أحد المقدمين الرئيسين للحفل على اسم زوجها صلاح للتقدم من المنصة للإعلان عن اسم الفائزة بملكة الورود، الذي أُخْتِير من طرف لجنة التحكيم المخصصة لهذا الغرض، ووسط أصوات عالية من التصفيقات والهتافات باسمه، اعتلى منصة الحفل، تأملته سارة كان أكثر هيبة ومحبة بين الحاضرين، والأكثر أناقة ووسامة بلباسه الرسمي الأسود، وبصوت هادئ رخيم أعلن عن الفائزة لتبدأ الاحتفالات مجددا بملكة جمال الورود فوق المنصة، وانطلقت الزغاريت والأغاني

والرقصات الشعبية من طرف سكان المنطقة ونواحيها، وحيا الجميع المتوجة بملكة الورود، حتى وجدت نفسها وحيدة وسط الزحام، واختفت السيدة فاطمة عن أنظارها، أحست برهبة وهي لا تعرف المكان بشكل جيد، نظرت بعينيها بعيدا بحثا عن منقد لها، فلم تلمح إلا صلاح العاجي وهو يغادر الحفل، فأسرعت خلفه، لكنه كان أسرع منها في خطواته، رغم ذلك حاولت أن تلحقه حتى انكسر كعب حذائها، وتأذت قدمها اليمنى، وسال منها بعض الدم، وعندما رفعت رأسها باحثة عنه وجدته قد اختفى ووجدتها نفسها وحدها على حافة جبل مظلم، قررت الاستنجاد بأقرب منزل تصادفه في طريقها، وفجأة سمعت أصوات أقدام قادمة خلفها، فقررت عدم الالتفات خلفها والركض بقوة، لكن قدمها الملتهبة خانتها، ورغم الألم حاولت حاولت إجبارها على الابتعاد عن تلك الأقدام التي تلاحقها، لكنها عجزت أمام شدة الوجع و سرعة الأقدام التي تلاحقها، استدارت نحوها لتتفاجأ بالمتربص بها، فصرخت غير مصدقة: أهذا أنت؟ ماذا تريد مني؟ لم يجبها بل اكتفى برش أنفها بعطر حتى أغمي عليها.

بعد ساعات قليلة، فتحت عينيها لتجد نفسها مقيدة من يديها وقدميها وفمها مغلقاً بشريط لاصق بشقة صغيرة ومرتبة، ما أن وعت وتذكرت الذي حصل معها حتى وجدته أمامها وهو يدخن سيجارته المعتادة، أرادت أن تصرخ لكنها عجزت فضحك، ثم جلس إلى جانبها على أحد الكراسي الخشبية وخاطبها: كنت تظنين أنك ستهربين مني؟

أرادت أن تجيبه فعجزت، فضحك من جديد، ثم أضاف قائلا: أما زلت لديك الجرأة للتحدث.... حسنا، لا بأس فلنسمعك، ثم أزال اللصاق عن فمها، فحاولت الصراخ مجددا، فضحك ضحكة شريرة، ثم أردف قائلا: لن يسمعك أحد في هذا المكان المهجور يا عزيزتي.

وبنبرة متوسلة سألته: ماذا تريد مني يا جون؟

-أصرت تجهلين ما أريده يا عزيزتي؟

-صدقني يا جون، سوف أسدد لك كل ديونك ريثما أتحصل على ميراثي، أرجوك حررني، فقدمي تؤلمني.

-ديون؟! وماذا عن ثمن هذه الصورة الرائعة لك؟ (فتح هاتفه، ثم أشار إلى صورتها العارية) ... أتدرين المبلغ الذي يمكن أن يدفع مقابلها؟

-أتبتزني؟ أنت تعلم أنني كنت غائبة عن وعي في لحظتها.

-ومن سيعلم بذلك يا عزيزتي؟ ما رأيك أن تغير العرض القديم؟ بالرغم من كل شيء، فبعد أن ابتعدت عني اكتشفت أنني أهواك.

-ماذا؟!

-لقد أصبحت أحبك يا عصفورتي الصغيرة، ما رأيك أن تصبحي عشيقتي وتعملين معي؟ وسأمزق الصكوك التي بحوزتي.

-أنت إنسان مريض، لا أريدك في حياتي، أنا امرأة متزوجة الآن.

ما إن تلفظت عبارتها الأخيرة حتى عَلت وجهه علامات الغضب، ثم أردف آمرا: لديك مهلة شهر واحد، إما تسددين ما عليك، أو تعلمين ما عليك فعله.

لم تتفوه بأي كلمة خوفا من ردة فعله غير المتوقعة، أحست أنها صارت بين نارين أحدها أقوى من الآخر، فمن جهة الصفقة التي ورطت نفسها بها مع صلاح، ومن جهة أخرى تهديد رجل المافيا الخطير.

قبل أن تُوجه إليه أي كلمة، رش عليها مجددا عطره العجيب، لتدخل في غيبوبة مجددا، لم تستفق منها إلا وهي على سريرها، وعلى قدمها الملتهبة ضماد طبي، فتحت عينيها غير مصدقة ما تراه أمامها، كان هو من يداوي جراح قدمها، ويغير لها الضماد بنفسه، فخاطبها بنبرة مؤنبة: لماذا لم تخبريني أنك ستكونين بالحفل الختامي لموسم الورود؟ لأحضرتك معي.

لم تفهم تغيره المفاجئ، وفجأة صار بالنسبة لها يؤدي دور الزوج الحنون الخائف عليها، لم تنطق أي كلمة من شدة التعجب، فأضاف :أرجو أن لا تتحركي من مكانك، حتى تلتئم جروحك بسرعة، وأي شيء تريدينه ما عليك إلا مناداتي.

-ترى، ما الذي غيرك نحوي فجأة؟

نظرا إليها وعلامات الاستغراب واضحة من سؤالها، صمت قليلا وبدا التردد في عينيه قبل أن يجيبها قائلا بنبرة صارمة: أرجوك، فأنا إنسان قبل كل شيء، أفهمت يا هذه؟

- جيد... أنك تذكرت ذلك يا سيدي.

- في المساء، سوف نعود إلى القصر

اكتفى بهذه الإجابة، وانصرف تاركا إياها حائرة بأمره، أيريد أن يكفر عن خطاياه معها؟ ويغير تلك الصورة المتوحشة التي شكلتها عنه بداخلها، أم أن هناك لغزاً وراء كل ذلك؟ لكن افي الأخير اقتنعت مع نفسها أن هذا تغيره المفاجئ صار غير مهم، فالرباط الذي يجمعهما له غلاف زمني محدد.

07 الوصايا

ساد خلال تلك الرحلة الليلية جو من السلام والهدوء بينهما.... بدا لها أكثر اتزانا من ذي قبل.... لم يسئ التصرف معها.... وبين الفينة والأخرى يستفسر عن وضع قدمها المريضة... ثم يعود ليشرد بعيدا وكأن أمرا جللاً يشغله.... أسعدها ذلك الاهتمام الذي أبداه بها... حتى نسيت تلك الليلة المشؤومة معه، كان الليل قاتما جدا، فلم تستمتع بسحر الطريق الجبلي ولا بالمناظر الساحرة المحيطة به... لم تشعر بطول المسافة ولا الزمن وهي برفقته بالسيارة، حتى وجدت نفسها أمام بوابة قصر عائلة العاجي، نظرت إلى ساعتها، فإذا هي تشير إلى الثانية عشر ليلا، أعلن عن وصوله بإصدار صوت من سيارته، فانفتحت أبواب القصر الرئيسية بسرعة، فدخلت سيارتهما تحت أضواء القصر التي لا تزال مشتعلة على غير عادتها في هذا الوقت من الليل، أثار هذا الأمر الفضول لديها، أوقف سيارته بالمكان المخصص لها، ثم نزل منها، وفتح لها الباب بشكل رومانسي، ثم اقترح أن يحملها إذا خانتها قدمها وعجزت عن المشي، فرفضت بأدب، بالرغم من ذلك لم يتركها للحظة، ساعدها وهو يتأبط ذراعها وهما يسيران معا ببطء، بينما تكلف حارس القصر بحمل حقائبهما إلى داخل القصر بعد أن تمنى لها الشفاء العاجل، دخلا معا القصر لتتفاجأ بأفراد الأسرة ما زالوا مستيقظين، وعلامات التعب مرسومة على وجوههم، ما أن لمحوهما حتى هرعت إليه ريحانة باكية، وهي تعانقه وتصرخ: السيد الكبير يموت يا صلاح، إنه يموت... لقد تأخرت عنا يا أخي صلاح.

لم تظهر أي علامات الصدمة عليه وكأنه يعلم بحاله، حاول أن يهدئ من روعتها وأردف: سيكون بخير يا عزيزتي، لا تقلقي.

لم تستطع تمالك نفسها وأضافت تخبره بنبرة شبه منهارة: هذه هي المرة الأخيرة للسيد الكبير يا صلاح، يبدو أنه كان يغافلنا ولا يأخذ دواء الضغط الدموي، ولا يتبع حمية السكر، يبدو أنه كان يخطط للانتحار.

تقدمت منهما أم ريحانة، ثم أخذت ابنتها في أحضانها تُحاول أن تهدئها، ثم خاطبتها: السيد كبير قوي جدا، ولن يهزمه المرض، والطبيب المنصوري سينقده.

لم يستطع صلاح أن يخفي توتره رغم محاولاته الجبارة، الذي بدا واضحا عليه بشدة وهو يفصح أنه سيصعد لغرفته للاطمئنان على وضعه، والتحدث مع الطبيب المشرف على علاجه، لكن قبل أن يخطو خطوة واحدة، ظهرت السيدة عائشة من فوق السلالم المؤدية للطابق الأول وهي شبه منهارة، يسندها ابنها ويتقدمهما الطبيب المعالج والممرضتان، وقبل أن يسأل أحد، نظر الطبيب نحوهم وعلامات التأثر واضحة عليه، وأردف قائلا: عظم الله أجركم في فقيدكم وفقيدنا الغالي.

لم يستطع صلاح العاجي أن يستوعب حديث الطبيب، وبنبرة متأثرة خاطبه؟ لا أفهم يا دكتور، لقد كنا قبل أسابيع برحلة عمل، وكان بصحة جيدة، كيف حدث هذا؟ أمتأكد من تشخيصك هذا؟

-أتفهم حالتكم جميعا يا سيد صلاح، لكن السيد الكبير لم يكن يتبع حمية السكر، ولا يشرب دواء الضغط، لقد أصيب بارتفاع حاد بالضغط الدموي ونوبة سكر قاتلة... لقد حاولنا إنقاذه، لكن مشيئة الله فوق الجميع.

لم تتوقع سارة هذا الخبر المحزن... لطالما كرهت العجور لما فعله بوالديها... لكنها لم تتمن يوما موته، أحست وكأن القدر أُبَى أن تقترب منه، وأن تتعرف عنه عن قرب، لم تستطع أن تبكي رغم أنهار الدموع التي انفجرت داخل أسوار قصر العاجي فور إعلان وفاته، وفجأة جفت دموعها، لكنها أحست بضيق شديد في قلبها، وبدا لها القصر مظلما وكئيبا كأن هناك غيمة سوداء تكدر الأجواء.

تكلف رجال عائلة العاجي بكل مراسيم الدفن، وقبل تغطية وجه السيد الكبير الأخير، سُمح لكل فرد من أفراد العائلة وبشكل فردي بإلقاء آخر نظرة وداع له قبل رحيله الأبدي عن هذه الدنيا، وعندما حان دورها، ودخلت غرفته أثارتها تلك الرائحة الطيبة التي تفوح منه وهو نائم بهدوء وسلام على نعشه، تأملته فرأت نورا ربانيا ينبع من وجهه البشوش، أرادت أن تُحادثه، لكنها عجزت عن النطق من شدة التأثر، لكن البسمة المرسومة على شفتيه أعادت لها التوازن من جديد، فرسمت على جبيته قبلة وهمست له: أسامحك على كل شيء حصل بالماضي والحاضر، على كل شيء يا جدي العزيز، فلترقد روحك بسلام، وبلغي سلامي لوالدي، وأخبرهما أنني أحبهما وأشتاق إليهما كثيرا

انتهت مراسيم الجنازة التي تمت بشكل يليق برجل ذي هيبة وسمعة مرموقة، بعد أن تمت الصلاة عليه بالمسجد الذي شيده بنفسه، الذي لم يكن يعلم بوجوده إلا محامي العائلة، حضر جنازته المهيبة عدد غفير من الناس، شهد الكل له بأعمال الخير التي كان يقوم بها على نحو سري وعلني.

حل المساء بسرعة كبيرة، وصار القصر باردا مهجورا من دون السيد الكبير، لم تستطع نساء القصر العاجي بثيابهن البيضاء تبادل حتى أطراف الحديث التافه عادة بينهن، أحست سارة بالإرهاق، فمند مجبئها لم تخلد للراحة، وعندما همت بالإنصراف نحو غرفتها، أوقفها صوت المحامي الذي أردف بنبرة حزينة: أعلم أن الوقت غير مناسب، لكن هناك أمراً مستعجلاً يجب أن أنفذه كما أمرني السيد الكبير.

لم يكن بمفرده، بل يرافقه (صلاح) الوريث الجديد وصاحب النصيب الكبير في عرش القصر العاجي، الذي بدا من تقاسيم وجهه متعبا وحزينا جدا، لم يستطع أن ينطق كلمة واحدة أو يذرف دمعة أمام أحد، حاول أن يتحلى بالصلابة والقوة أمام الجميع، لكنه فشل أمامها (سارة)، تأملته جيدا فوجدت نفسها أمام رجل ضعيف ومهزوم وقابل للانكسار في أي لحظة، وهذا ليس بغريب، ففراق الأحبة صعب حتى على أقوى الرجل.

في ظل تلك الأجواء الحزينة، أردفت السيدة عائشة العاجي: أيمكن أن تؤجل ذلك ليوم آخر يا سي إبراهيم؟، لقد تعبنا كثيرا هذا اليوم، لا زلنا لم نستوعب بعد كل ما حدث.

-إنها وصية المرحوم يا لالة عائشة، ويجب الالتزام بها كما يريد، لقد طلب مني أن أنفذها وهو في أول ليلة له في دار البقاء.

عندما أنهى جملته الأخيرة ساد الصمت، ولم يعترض أحد بعد ذلك على حديثه، فطلب من كل أفراد عائلة العاجي والسيدة خدوج الجلوس بمكان واحد، ثم أخرج من حقيبته حاسوبه المحمول الخاص به، وأشعله وأدخل داخله شريطا دائريا الشكل، ووضع بجانبه مجموعة من الأظرفة البيضاء اللون، وفجأة ظهر على شاشة الحاسوب السيد الكبير بكامل صحته بجلبابه الأبيض وسلهامه الراقي، فتباينت ملامح أفراد العائلة بين الذهول والبهجة، فابتسم لهم وهو يخاطبهم:

لا تفزعوا رجاء، أجل إنه أنا.... السيد الكبير.... وأنتم ترون هذا الشريط المسجل أكون الآن في داري الأبدية.

- أحبائي، بناتي العزيزات...عائشة وأم ريحانة وصالحة... أحفادي الأعزاء صلاح ويوسف وريحانة والغالية ابنة الغالي سارة... السيدة الطيبة خدوج...أتمنى أن يفي الصديق والأخ الغالي سي إبراهيم ويحقق وصيتي وتُتلى عليكم في هذه الليلة.
- أحبائي، قبل أن أدخل صلب الموضوع، أود أن أخبركم أن هذا الشريط بمثابة وثيقة قانونية أدليت بها وأنا بكامل قواي العقلية والبدنية، وكل ما فيها يجب أن يُنفذ بتفاصيله، وأي معترض أو معترضة عنه يعتبر محروما أو محرومة من ثروتي.

- أحبائي، لطالما فكرت كيف سأوزع هذه الثروة الضخمة؟ ولكن حتى لا أظلم أو أُشرد أحدا من أفراد عائلتي الغالية، سيظل قصر العاجي ملاذا لكل أفراده، لهذا، لا يحق لأي أحد منكم التصرف به، لا بيعا ولا شراء ولا رهنا.
- ابن أخي العزيز صلاح، أعلم أنني في أوقات قد عارضتك، وكرهتني؛ لأنك اعتبرتني ضد سعادتك ... لكنني كنت أرى أشياء عجزت خبرتك الصغيرة في هذه الدنيا عن رؤيتها.
- ابن أخي وشريكي الصغير، أعلم أنني قد تأخرت في منحك نصيبك الشرعي، لكن ذلك حبا في الحفاظ على مصالحك، حتى تصبح رجلا كما أنت اليوم، قويا وذكيا وحازما، أفتخر بك... لهذا فالخمسون في المئة من أسهم مجموعة الشركات والأراضي التي أملك فهي حقك الشرعي من ميراث والدك الذي كان شريكا لي بمجهوده وأمواله في بناء إمبراطورية العاجي.
- ابنتي عائشة، وتوءم روحي وهدية زوجتي الغالية التي لا تقدر بثمن، سامحيني... إن كنت قاسيا معك في يوم ما (بكاء عائشة لدى سماعها هذا الحديث) ...لكن الخوف من فُقدانك وأنانيتي جعلتني أرفض من يتقدم لك وأنت أرملة في ريعان شبابك، وذلك خوفا أن تبتعدي عني. فأفقد دفء عطفك.....أما بخصوص ميراثك من والدتك الظاهرة، فهو بالمناصفة لك ولابنة أخيك الوحيدة (سارة)، ولك ربع الأراضي التي أملك... أرجوك اعتني بصغيرتي.
- بناتي أختي (يبتسم) أم ريحانة وصالحة وريحانتي الصغيرة، ... ستكون لكن بالمناصفة تلك الضيعة التي لظالما حلمتن بها...وتركت لكن رصيدا من المال يكفي كل واحدة منكن لما تبقى من حياتها.
- يوسف، آه يا يوسف، يا حفيدي المتمرد، تذكرني أحيانا بفترة طيشي، لكنك وعدتني بأن تكون مسؤولا.... وأنا أتق بك، لهذا سأمنحك 25 في المئة من الأسهم في مجموعة مؤسسات العاجي، أريدك شابا ناجحا، أعلم أنك ستتغلب على إدمانك في أقرب وقت.
- سارة،...يا حفيدتي الغالية... أعلم أنك تستغربين نعومة أسلوبي معك، وربما قد تلقبينني بالعجوز المخادع (يبتسم)... لكنك كنت تلك الفرحة والبشرى السارة لي ... كنت كلما نظرت إلى عينيك أرى فيهما تساؤلات كثيرة، لكنني أخشى ألا يمهلني الوقت لأجيب عليها كلها، لقد كان والدك يراسلني، ولكنني كنت غاضبا منه لأنه رحل

بعيدا، وهو الابن البكر لي، كان يرسل رسائل من دون تلقٍ أي إجابة مني، لكنه لم يستسلم، أرسل إليَّ في إحدى رسائله الكثيرة صورة لك، وأنت لا تتجاوزين يوما واحدا، وبعد ذلك أرسل إليَّ صورة جديدة لك،

وأنت بعمر الثلاث سنوات، وأخبرني أنك مرحة جدا، وأنك تشبهنني في أشياء كثيرة، وبعد عشر سنوات أرسل إليَّ رسالة يطلب مني الصفح عن كلما بدر منه نحوي، تعلمين كم كنت أنتظر بشوق تلك الرسائل؟ ولكنني كنت أكابر في الرد عليها، حتى اختفت رسائله عني فجأة واختفى معها.

- حفيدتي الغالية سارة، لقد تغلبت على عنادي، ودفعني الشوق لمعرفة أسباب غيابه عني، ففجعت بوفاته، فدخلت في حالة اكتئاب طويل، خاصة وأن تلك السنة صادفت وفاة أخي الصغير أيضا، وبعد أن عدت لتوازني من جديد، بَحث عنك، فأرسلت متحري خاص للندن، لكنه لم يعثر عليك، حتى نجح صلاح بذلك، وجدك وأنت شابة يافعة وأعادك لأحضاني... لو تعلمين كم أسعدني أنك عدت لنا، وتزوجت فردا منا،
- حفيدتي سارة الغالية، أعلم أن خمس وعشرون من أسهم الشركات غير كافية... ولن تعوضك ولو عن القليل عن الغربة الإجبارية والحرمان الأسري.... عزيزتي.أعلم أنك تحبين العطور مثلي...لهذا خصصت لك رصيدا مهما من المال لتبدئي مشروعك، وتحققين أحلامك... وأنت معنا... محبتي.
- السيدة الطيبة خدوج...الأخت الغالية ... رفيقة كفاحي لي أنا وزوجتي إيثري... أشكرك على ما قدمت لنا...وأتمنى أن يكفيك المبلغ المالي الذي تركته لك مع سيد براهيم لتجهيز ابنتك الوحيدة... فأنت جزء من العائلة ومرحب بك دائما معنا.
- أحبائي، بهذا أكون قد أنهيت وصيتي التي لا يمكن أن تتحقق إلا باتباع الشروط التي سيخبركم بها سي ابراهيم. ولا تنسوني من الدعوات والصدقات التي صرت بأمس الحاجة إليها وأنا هناك.

ما أن أنهى خطابه حتى اختفى عن شاشة الحاسوب، وارتسمت على الوجوه علامات الارتياح من الوصية التي رأوها عادلة ومنصفة.

لم يتأخر السيد إبراهيم، فأعطى كل واحد من أفراد العائلة ظرف أبيض مغلق من الأظرف الموجودة بجانبه مغلق، وهو يقول: هذا الظرف يضم الشروط التي يجب أن يلتزم كل منكم من أجل الحصول على نصيبه التي حدده المرحوم السيد الكبير رحمة الله عليه، وهي تعد وثائق قانونية، لدي نسخة من كل منها، وفي حالة مخالفتها مضمونها من من أحد منكم، فإنه يحرم تلقائياً من الميراث.تدخلت أم ريحانة متسائلة: أتعلم مضمون كل ظرف من هذه الأظرف، يا سيد إبراهيم؟

- بالتأكيد، كل شيء تم بعلمي وبحضور مجموعة من الشهود الموثوق بأهليتهم القانونية.

كانت أطول ليلة وأصعبها على كل العائلة، فبعد الفراق جاء زمن تقسيم الثروات، فانشغل كل فرد من أفراد العاجي بتقييم ثروته الجديدة، وتغيرت ملامح وجوه كثيرة من العبوس إلى الانشراح، بينما ذهلت سارة من ذكاء الرجل بعد أن أدركت المغزى من هذه الوصية في هذه الليلة بالذات، وبعد أن أحزنهم بتصرفاته غير المبررة

وغير المفهومة، وهو معهم، ها هو بعد رحيله يعود ليزرع في دواخلهم الكثير من السعادة والراحة والطمأنينة على المستقبل القريب والبعيد، ويترك وراءه أثرا طيبا لن ينسى.

الكل يحلم بالثراء السريع، ولكن لا أحد يأمل أن يكون ثراءً مفروشا بالشروط، لم تتوقع سارة أن تجد أحلامها صارت مرهونة وخاضعة لظرف صغير وأبيض اللون، تمددت على سريرها الواسع والظرف يجاورها، نظرت إليه مليا والفضول يلتهمها، وفي الوقت نفسه خائفة مما يخفيه محتواه لها، بعد تردد ما بين فتحه وتركه مغلقا، وجدت نفسها تأخذه، وتمزقه على وجه سليم، ففوجئت بما رأت داخله، كانت صورة عائلية لها رفقة والديها، وهي لا تتجاوز العشر سنوات سنوات، تأملتها حتى دمعت عيناها، وكأن العجوز يحاول أن يُقدم أدلة على كل أقاويله السابقة، وبينما تُقبل صورة والديها، لمحت في خلفية الصورة خطاباً بقلم أسود * **بالدنيا كنوز كثيرة ومتنوعة، ولي فيها كنز لا يُقُدر بثمن... إخلاصك وعنايتك به سيجعلني ثريا، ويجعلك أكثر ثراءً مني.....هذه وصيتي لك يا عزيزتي*** لم تفهم مغزى الرسالة، وعن أي كنز يتحدث العجوز، كانت الرسالة بالنسبة إليها شبه مشفرة تحتاج إلى قارئ رموز محترف.

في تلك تلك الأثناء طرق باب غرفتها وسمعت صوت السيدة عائشة تناديها: ألا تزالين مستيقظة يا عزيزتي؟

أعادت بسرعة الصورة للظرف، ثم فتحت لها الباب، ورحبت بها، جلست الأخيرة في جانب السرير ثم أردفت قائلة: لقد رأيت زوجك يغادر للتو بسيارته، فاستغللت الفرصة لأراك قبل أن يعود.

وبنبرة مترددة، أجابت سارة: نعم، لقد أخبرني بذلك.

انتبهت السيدة عائشة للظرف الممزق والمرمي على السرير بجوارها، فسألتها: أقرأت وصية السيد الكبير لك.

بنبرة متوترة، أجابت: نعم.

- أهناك أمر سي ء فيها؟
- إنها رسالة مشفرة (ثم أخذت الظرف بين يديها، وأخرجت منه الصورة وأعطتها لها)

ابتسمت السيدة عائشة فور قراءتها ثم أردفت قائلة: حتى بعد رحيلك يا والدي الحبيب كنت حكيما. ثم أعطتها الظرف الخاص بها، وطلبت من سارة قراءة مضمون، كانت الوصية عبارة هي الأخرى عن صورة تذكارية لزفاف جديها، ذُهلت سارة من التشابه الكبير بين صورة جَدتها **إيثري** وبين السيدة عائشة، كانت تُدعى إيثري، باهرة بأناقتها وسحرها، أدارت الصورة لتقرأ بخلفيتها الوصية التي وجهها لعمتها عائشة، التي كانت لها أقصر من الرسالة التي تركها لها * **لن تنالي كنزك إلا بعد تحقيق سعادتك** * ما أن أتمت جملتها حتى خاطبتها سارة مستغربة: وماذا تعني هذه الرسائل؟

ابتسمت السيدة عائشة وأجابتها: يبدو أن والدي نادم لأنه كان حاجزا أمام سعادتي، بعد أن ترملت، وأنا في ريعان شبابي، لكنني أسامحه على كل شيء، سأعمل على تحقيق هذا الشرط، ليس من أجل الثروة، ولكن من أجل أن يستريح في داره الأبدية.

-تحليلك للوصية منطقي جدا يا عمتي، لكن الكنز الذي ذكره في وصيتي لغز محير لي.

ابتسمت السيدة عائشة من جديد، ثم طلبت منها إعادة قراءة الرسالة التي وجهها لها، ولكن بصوت عالي، وبعد إنهائها ذلك سألتها: ما هو الذي ينفع الإنسان في الحياة والموت معا؟

- لا أدري.

- فكري جيدا، شيء نستفيد منه كثير خاصة بعد الرحيل عن هذه الدنيا.

- للأسف، أنا لست متدينة.

- حسنا، لا باس يا عزيزتي، سأوضح لك...عندما يرحل الإنسان عن هذه الدنيا ... لا يبقى إلا الآثر الطيب له، ولا تنفعه في داره الأخرى سوى الدعاء والصدقة، لهذا شيد خلفه كنزا ثمينا، وجعله أمانة بيديك.

- أظنني فهمت، أيقصد بالكنزذلك المسجد الذي اكتشفنا أمره بعد رحيله؟

- أجل، يا عزيزتي، ومُهمتك هي العناية به، وإخلاصك في هذا العمل سيجعلك تحصلين على ميراثك بأسرع وقت ممكن، وهنيئا لك بذلك.

- يا له من شرط غريب، ولماذا برأيك يختارني السيد الكبير لهذه المهمة التي أجهلها؟

- لأنه يحبك يا عزيزتي، ما أوصاك به فيه خير كثير لك، وله ولنا جميعا بفضل الله... وسوف نرشدك ونساعدك في النجاح في مهمتك، رحمك الله يا أبي

08 لن أتخلى عن سعادتي

بعد مرور ثلاثة أسابيع على رحيل كبير عائلة العاجي، صارت الأيام متشابهة بالقصر، حاولت السيدة عائشة الحفاظ على لمة العائلة كما كان في عهد والدها، وتم ترك كرسيه فارغا خلال وجبات الإفطار والغذاء والعشاء، ظلت سارة تحافظ على كل عادات العائلة مع باقي أفراد العائلة، تحضر اللقاءات العائلية التي لم يغب عنها خلال هذه الفترة سوى صلاح ويوسف اللذان سافرا إلى خارج البلاد لإعادة ترتيب أمور العمل، خاصة بعد رحيل كبيرها.

وفي إحدى الأمسيات العائلية، وبينما نساء العائلة مجتمعات على طاولة العشاء، تدخلت السيدة أم ريحانة تقول، وهي تخاطب السيدة عائشة: سوف نسافر الأسبوع المقبل في رحلة أنا وابنتي وأختي للضيعة التي منحها لنا لنرتب أمورها.

فوجئت السيدة عائشة من حديثها، فأجابت بنبرة صارمة: إن هذا الوقت غير مناسب للميراث يا أم ريحانة، ووالدي لم يغب عنا سوى أسبوعين.

ما أن أنهت السيدة عائشة جُملتها حتى علت علامات الغضب ملامح أم ريحانة، وأردفت بنبرة قاسية: المرحوم لم يغب عنا أسبوعان، بل رحل عنا رحيلا أبديا، والميراث حق شرعي للورثة ...

قبل أن تنهي حديثها، تدخل صوت رجولي مألوف من بعيد قائلا: وهل نُفِّذت وصية السيد الكبير يا سيدة أم ريحانة كما يجب.

بدت الدهشة عليهن عند رؤية السيد إبراهيم بينهن في هذا الوقت المتأخر من المساء، وعندما لم تجبه، أضاف قمخاطبا أم ريحانة: لقد سمعت حديثك بالصدفة يا سيدة أم ريحانة، لهذا أود أن أذكرك بشروط المرحوم، التي يجب الالتزام بها للحصول على ميراتكن.

انعقد لسان أم ريحانة عن الكلام، فتدخلت ابنتها معتذرة ثم أردفت مبررة تصرف أمها: جدي غال علينا جدا، وأمي لم تستوعب بعد القصر خاليا من دونه، ووصية جدي سننفذها بحذافيرها.

لم تتأخر السيدة عائشة في الرد: لا تبرري يا عزيزتي أي شيء، الكل يعلم طباع أمك القاسية منذ الأزل.

وفجأة وبدون سابق إنذار، انهارت السيدة أم ريحانة بالبكاء، وهدأتها أختها صالحة وابنتها، ثم رافقنها لغرفتها، وبصوت خافت عَلقت السيدة عائشة على تصرفها قائلة: لقد بدأت دموع التماسيح تنهمر من جديد.

ما حدث للتو أمامها، كشف لسارة وجود علاقة متوترة بين العمة عائشة وابنة عمتها أم ريحانة التي ليست وليدة اليوم، ولم تطف من جديد على السطح إلا بعد الرحيل الأبدي للسيد الكبير.

لم تمر سوى لحظات حتى ظهر بينهم صلاح والإرهاق بادي على وجهه، ألقى تحية باهتة على الجميع، بينما تجاهلها بطريقة مستفزة دون أن يسأل عن حالها، ثم رافق السيد المحامي إلى مكتب القصر، وفجأة ظهر ابن عمتها يوسف وعلامات التعب بادية عليه هو الآخر، وحياهما بسرعة، ثم أخذ كرسيا، وبدأ يأكل بشراهة جعلتهما تضحكان.وبنبرة مازحة خاطبته أمه؟ يبدو وكأنك لم تأكل منذ الصباح.

- وهل السيد صلاح يتركك تأكل كما تريد يا أمي؟ لقد قضينا معظم أيامنا في قاعات الاجتماعات.

- الحمد لله والشكر لله أنكما معنا، وستأكلان كما تشاءان.

- الشكر لتلك المكالمة الهاتفية الفجائية التي عجلت بمجيئنا.

- أحدث أمر خطير؟

- لا أدري، أظن أنه أمر يخصه.

حاولت سارة التأخر قدر المستطاع على طاولة العشاء، حتى تستفهم ما يحدث مع زوجها، لكن تأخره الطويل مع المحامي في غرفة المكتب، جعلها تنسحب لغرفتها، خاصة بعد مغادرة العمة عائشة وابنها المكان.

ظلت طوال الليل، تتقلب على سريرها يسارا ويمينا، تنتظر دخوله في أي لحظة، فبزغ الفجر، فغفت قليلا، لكن التحركات الكثيفة بغرفتها جعلتها تعود من غيبوبتها المؤقتة، لتجده جالسا بجوارها وعلامات الغضب مرسومة

على وجهه الشاحب، بدا لها على غير طبيعته، فاستفسرت قائلة: أأنت بخير؟ لقد أخبرنا يوسف أن هناك أمرا خطيرا قد أغادكما بشكل مستعجل؟

ظلت عيناه مسمرتين في الأرض وبنبرة قاسية أجابها: نعم، للأسف، إنه أنت، أنت من أعادنا، كدت في لحظة أن أخدع فيك، اعتقدتك إنسانة طيبة، وأنبني ضميري لأنني أسأت لك في أحيان كثيرة، لكنك في الحقيقة مجرد خبيثة ليس إلا، وهذا لن ليس بغريب عن واحدة تعرض جسدها في المنصات العالمية من أجل الحصول على المال السريع.

باغتها تغيره المفاجئ، أحست بأن كلماته الموجهة لها كخناجر تطعن كل جزء من جسدها، لم ترد أن ترد الإساءة بالإساءة بعد أن ساعدها في محنتها الأخيرة، وبنبرة متوسلة سألته: ما الذي غيرك نحوي هكذا؟ لقد كنت بالأمس رجلا شهما؟

سحب ورقة من جيبه ورماها بوجهها، وبنبرة غاضبة خاطبها: لم أتوقع أن يصل بك الجشع لهذه الدرجة، يبدو أن الطبع يغلب التطبع.

قرأت سارة الورقة، فصعقت بشدة، كان استدعاء باللغة الإنجليزية من السفارة البريطانية بتهمة احتجاز مواطنة بريطانية وإجبارها على الزواج به وممارسة العنف الزوجي عليها.

انعقد لسانها عن الكلام، فأردف قائلا بنبرة صارمة: سوف نذهب إلى المحكمة غدا، وتتنازلين عن القضية من دون فضائح.

بعد أن أنهى جملته، انسحب تاركا إياها في دوامة من الأحزان، أحست بالندم من تسرعها بالحكم عليه واللجوء لصديقتها، التي أرسلت إليها النجدة بالوقت غير المناسب، لم تفهم هذه المشاعر الجديدة التي أصبحت تنتابها نحوه، أحست برغبة شديدة في الصراخ، أرادت أن تدافع عن نفسها، لكن الأدلة كانت كلها ضدها.

ما أن حل يوم جديد، حتى وجدت السيد إبراهيم في وقت مبكر بانتظارها بحديقة القصر، ركبت معه السيارة، لتجد نفسها في قاعة المحكمة وبجانبها صلاح الذي لم ينظر إليها خلال إجراءات التنازل عن القضية، التي قامت بها عن طيب خاطر منها، وليس بإجبار منه كما يعتقد، كان المحامي هو الشاهد الوحيد عن هذه القضية التي ستظل سراً بين الثلاثة، ما أن

انتهى كل شيء، حتى انسحب صلاح مغادرا، وكأنه لا يعرفها، حاولت اللحاق به لتعتذر له لكنه صدها قائلا: أرجوك، لا تقتربي مني مرة أخرى.

كان يبدو غاضبا جدا، لاحظ المحامي حزنها فأردف قائلا: اتركيه يُشْفَى من جراحه يا ابنتي. فهو لا يزال لم يستوعب وفاة السيد الكبير بعد، حتى وجد نفسه يدفع غرامة مالية ضخمة للمحكمة.

نظرت إليه بحزن وردت: صدقني يا عم إبراهيم، لم أقصد الإساءة له، لن أنسى ما فعله نحوي. كل ما أتمناه. هو أن يسامحني فقط،

أشفق المحامي عليها، ورد عليها مطمئنا: أعلم ذلك، يا ابنتي. وأُصدقك.

لم ترغب في الخروج من غرفتها منذ عادت من المحكمة، ولم تستطع أن تشرب سوى فنجان من القهوة بعد إلحاح شديد من السيدة خدوج، التي عادت مرة أخرى لغرفتها، ولكن هذه المرة حاملة في يدها هاتفا نقالاً، ثم قدمته لها وهي تقول: يبدو أنك نسيت هاتفك الشخصي بالحديقة، لقد كان يرن باستمرار.

وفي تلك اللحظات اقتحم صلاح الغرفة عليهما، فانسحبت السيدة خدوج مغادرة، لم ينظر إليها أو يُحدثها، بل اكتفى بأخذ حقيبة من خزانته ثم وضع كل ثيابه داخلها، لم تستطع أن تستحمل تجاهله، فأردفت سائلة قائلة: إلى أين أنت ذاهب؟

التف إليها ورمقها بنظرات غاضبة ثم أجابها: لا شأن لك.

وبعصبية أردفت قائلة: لا تقلق، فقريبا سأرحل عن هذا القصر.

أغلق حقيبته بإحكام، ومن دون النظر إليها، أجابها قائلا بنبرة قاسية: لم أعد أريد رؤية وجهك، بعد نهاية الحداد على السيد الكبير سوف تحصلين على حريتك وميراثك، وترحلين من هنا دون عودة.

ودون تردد أجابت بنبرة متكبرة: هذا ما أتمناه وبأسرع مما تعتقد، لم أعد أريد أن أكون أسيرة هذا القصر الجليدي، وأيضا أسيرة لك.

صمت قليلا، ثم تأملها قليلا، وأجاب بنبرة حاسمة: كما تريدين.

حمل حقيبته وغادر المكان، فأحست بالغربة والوحدة، لم تفهم هذه الأحاسيس الجديدة التي أصبحت تنتابها اتجاه هذا الرجل، وهذا الندم التي أصبح يسيطر عليها، ألم يكن هدفها هو الحصول على حريتها بأقرب وقت والرحيل عن أسوار هذا القصر البارد؟ وقد حصلت على مرادها، لم تفهم لما أصبحت تتمنى فقط أن يغفر لها غدرها.

وفي تلك اللحظات رن هاتفها، فلما رأت الرقم ردت بصوت باهتة بلغة إنجليزية: كارلا. كيف حالك يا صديقتي

- مآبك؟ تبدين من صوتك متعبة.

- أنا جد متعبة يا صديقتي، لقد أخطأنا يا كارلا بحق هذا الرجل.

- عن أي شيء تتحدثين؟ لم أفهم شيئا، اسمعيني جيدا، أنا الآن في منطقة إمليل.

ابتهجت سارة غير مصدقة، وسألتها: أصحيح ما تقولين؟

- نعم، سأرسل إليك عنوان الفندق الذي أقطنه في رسالة هاتفية، أريد أن أراك الآن.

اختارت سارة فستاناً من الفساتين التي اشتراها لها صلاح فارتدته، ثم طلبت من سائق العائلة أن يُوصلها للعنوان الذي حددته لها صديقتها، كان الفندق قريبا بعشرين دقيقة بالسيارة، ما أن وصلت للمكان المقصود حتى طلبت من فتاة الاستقبال إعلام صديقتها بوصولها، وبعد اتصال هاتفي سريع بغرفة كارلا، أمدت الموظفة سارة برقم غرفة صديقتها، فصعدت بسرعة إليها، ما أن رأتها الأخيرة التي كانت لا تزال بملابس الحمام وشعرها لا يزال مبللا حتى صرخت من السعادة، وبشدة عانقتها وهي تتمتم: اشتقت إليك يا رمادية العينين.

وبعد لحظات طرق باب الغرفة، ففتحته كارلا ليدخل موظف شاب حاملا معه فطور تقليديا على مائدة مستطيلة متحركة فشكرته، ثم طلبت منها مشاركتها الإفطار المتأخر وهي تقول: تعلمين أن صديقتك تتأخر عن الفطور في الفترة الصباحية.

كانت الساعة تشير إلى الثانية عشرة زوالا، حاولت سارة إجبار نفسها على الأكل لكنها عجزت، وهذا ما أثار انتباه صديقتها، التي أردفت قائلة: لقد علمت أنك تنازلت عن القضية، أنا لا أفهمك، يا صديقتي، هل هددك ذلك المجرم؟

بنبرة باهتة: لا، بل بالعكس وعدني بأنه سيمنحني الطلاق بعد مرور فترة الحداد على جدي.

ضحكت وردت كارلا بنبرة المنتصرة: هذا جيد، إذن لقد نجحنا، لا بأس بالتنازل عن القضية مقابل ذلك، ولكن لماذا عيناك ذابلتان؟

بدا التحسر بعيني سارة وهي تقول: أنا نادمة لأنني أذيته بهذا الشكل، لقد ساعدني عندما أصيبت قدمي، وكلف طبيبة بمتابعة قدمي بعد أن عدنا للقصر، إنه رجل شهم وحنون ... كم أتمنى أن يقبل اعتذاري.

بنبرة غير مصدقة: أتحبينه يا سارة؟َ

ذهلت سارة من قولها، وأجابت: بالتأكيد لا، إنه مجرد تأنيب للضمير.

ابتسمت كارلا بمكر ثم أردفت قائلة: ربما، لكن أهم شيء يا صديقتي هو سعادتك، ولو كان الأمر يتطلب الإلحاح في الاعتذار له.

فوجئت سارة من تغير نبرة كلام صديقتها عنه، ثم قالت: سأحاول ولكن أخشى أن يرفض اعتذاري ويجرح كبريائي.

ابتسمت كارلا من جديد، وقالت: أرجوك، حاولي مرة واحدة يا سارة، فلا كبرياء مع السعادة.

بدت إجابات صديقتها كارلا مشفرة بالنسبة إليها، لم تفهم لما ترمي، وكان الأخرى لاحظت علامات الاستفسار فباغتها بالنظر لساعتها، ثم أكملت قائلة: لدي اجتماع عمل بعد ساعة في مدينة مراكش مع أهم دور الأزياء بالبلاد.

- إذن، لو لم يكن العمل ما كنت سأراك.

- لقد كنت أنوي زيارتك في الأسبوع المقبل، الشكر لله، أنني التقيتك قبل ذلك.

فتحت كارلا حقيبتها الصغيرة، وأخرجت منها بطاقة دعوة، ثم قدمتها إليها، عانقتها سارة وتمنت لها التوفيق، وقبل أن تغادر بوابة الفندق، نادتها فتاة الاستقبال باسمها الكامل، ثم أعطتها ظرفا أبيضا، استفسرت سارة عن صاحب هذا الظرف،

فأخبرتها أنه من أحد المقيمين السابقين بالفندق، وأنه انتظرها كثيرا في صالة الاستقبال، وعندما تأخرت طلب منها إعطاء هذه الرسالة لها.

فتحت سارة الظرف، وأخرجت منه ورقة صغيرة، فقرأت الجملة التالية – **لم يبق سوى أسبوعين على موعدنا يا حبيبتي – نظرت إلى التوقيع الموقع أسفل الورقة، فصدمت باسمه – جون دون ألبير** -. فجأة أحست بالضيق، وأنها محاصرة من كل جانب، وصارت دقات قلبها في تحدٍ مع دقات الزمن، وقلت معها الفرص والاختيارات، وتأكدت أن لا أحد سيساعدها سوى نفسها.

09 فرصة ثانية

كانت الساعة تشير إلى العاشرة صباحا، عندما وقفت السيدة عائشة بجوار رأسها، تُذكرها بوصية السيد الكبير لها، حاملة بين بيديها صينية عليها فنجان شاي أخضر ساخن من الحجم الكبير مرفوق بفطيرة وبعض الجبن والبيض المسلوق وبعض الزيتون المنسم بأعشاب برية، فتحت سارة عينيها بصعوبة، خاصة وأنها تعلم أن لا أحد سيزعجها بعد إخلاء صلاح لغرفتها واختفائه بعد ذلك عن القصر، لم تكلف نفسها حتى الاستفسار عنه، ولم تكن لتعرف أنه قد سافر برحلة عمل إلا بالصدفة من طرف السيدة خدوج التي أخبرتها وهي تثرثر لها بالحديث.

بعد أن أنهت آخر رمقه من فنجانها، أهدتها السيدة عائشة لباسا تقليديا أنيقا وفضفاضا وحجابا بنفسجي اللون، وطلبت منها ارتداؤه، ما أن فعلت ذلك حتى انبهرت بها، ذَكَّرها هذا اللباس الفضفاض براهبات الدير اللواتي كن يزرن المدرسة التي كانت ترتادها، أضفى عليها وقارا شديدا وسحرا خاصا.

لم تعارض سارة عمتها عائشة في أي شيء تطلبه منها، كانت تريد فقط تحقيق الشرط والحصول على الثروة وحل جميع مشكلاتها.

كان المكان التي توقفت فيه سيارة العائلة محاطا بتلال ساحرة جدا وبعيد جدا عن القصر بكيلومترات طويلة، وبمنطقة شبه معزولة، ما أن رأتهما إحدى السيدات التي كما يبدو كانت على على علم بزيارتهما، حتى رحبت بهما، ثم أقبلت تعرفهما على أركان المسجد، كان شاسع المساحة، ويضم صالة خاصة بالرجال وصالة خاصة بالنساء، غير مكتمل التجهيزات، وبينما هما تتنقلان من ركن إلى ركن، أردفت السيدة المضيفة بنبرة حزينة:

لقد كان السيد الكبير رحمه الله يريد أن يجهزه ...لكن إرداة الله فوق كل شيء.

فردت السيدة عائشة بنبرة مطمئنة: إن السيدة سارة العاجي ستتكلف بكل شيء، وسيتحقق كل شيء وفق ما أراد السيد الكبير.

فرحت السيدة المضيفة كثيرا بهذا الخبر، وشكرتهما كثيرا، أحست سارة بأنها بورطة فعلاقتها بالدين معدومة، ورأت أن المهمة ليست بالسهلة كما اعتقدت، بعد انتهاء جولتهما بالمكان، قدمت لها السيدة القروية قائمة باحتياجات المسجد، الذي بدا لها من خلال هيئته أنه لا يزال حديث العهد. ويحتاج إلى أشياء كثيرة.

في أثناء عودتهما للقصر، اطلعت سارة على تلك القائمة، لكنها لم تفقه شيئا منها، كانت مكتوبة بلغة عربية فصيحة، ورغم إتقانها للغة، فإنها وجدت صعوبة في فهم مغزاها، ابتسمت السيدة عائشة وهي تلاحظ حيرتها ثم أردفت: لا تقلقلي، سوف أترجم لك القائمة باللغة الإنجليزية، كنت أتمنى أن أرافقك غدا، ولكني أحس ببعض الألم في قدمي، يجب أن أعود لطبيبتي لتشخيص وضعيتها.

في تلك اللحظة، أحست سارة بتأنيب ضمير، فأردفت: آسفة لأنني أرهقك معي؟

-لا يا حبيبتي، أحتاج فقط لبعض الراحة وسأتحسن، وإذا كنت غير مستعجلة حتى أشفى...

قاطعتها سارة قائلة: لا تقلقي بشأني، سأتكلف بكل شيء.

بعد يوم حافل وشاق قضته سارة مع عمتها عائشة في المسجد، ثم تناولهما للغداء بأحد المطاعم المعروفة بالأكلات العالمية، وقيامهما بجولة سريعة بالمنطقة، التي أحبتها سارة وصارت روحها تتأقلم مع هذه الطبيعة الساحرة، التي كانت تُدرك أنها ستغادرها قريبا، انصرفت العمة عائشة لغرفتها، بينما جلست سارة وحدها في حديقة القصر، تَستمع بروائح الورود المحيطة بها، وهي ترتشف فنجاناً من الحليب بالشوكولا التي أعدتها لها السيدة الطيبة خدوج، أخذت بعض المجلات المحلية التي اقتنتها في طريقهما، تفحصت إحداها فتفاجأت بصورة تجمع زوجها وعشيقته السابقة غيثة، وهما يحتفلان ويبتسمان، قرأت العنوان بصعوبة – **ش..راكة جديدة تج..مع بين عمال..قة الورود في الب..لاد – الآنس..ة غيثة الأنصاري وصلاح العاجي**، فوجئت بتصرفه السريع، فالرجل

كما يبدو لها، يريد العودة إلى حبيبته السابقة بأسرع وقت ممكن، ولهذا صار يتحجج بأي شيء حتى يتحرر منها، تأملت سارة صورتها معه، فبدت لها ساحرة جدا بفستانها الأسود الطويل، أغلقت المجلة بعصبية، وشعرت بغضب شديد لم تفهمه، وفي تلك الأثناء ظهرت لها سيارته وهي عابرة لحديقة القصر نحو المكان المخصص لها، نزل منها، لكنه لم يكن وَحْدَهُ، بل كانت معه عشيقته غيثة كما تحب أن تسميها، كان يبدوان سعيدين، ما أن رأتها الأخيرة، حتى اقتربت من سارة وحَيتها بابتسامة خبيثة، بينما هو اكتفى بتحية باردة، ثم توجه لداخل القصر تاركا إياهما، أحست سارة بالإهانة من تصرفه، خاصة وأنه غائب عن القصر منذ أربعة أيام، جلست غيثة على الكرسي المجاور لها وبجوف عينيها كلام كثير، ثم أردفت متسائلة بنبرة المنتصر في المعركة: لقد أخبرني صلاح أنك لا ترتاحي هنا، وقريبا ستغادرينا، فهل تنويان الطلاق؟

غضبت سارة؛ لأنه أفشى سرها وأجابت: لن نطلق، إنها مجرد رحلة مؤقتة لأرتب أموري هناك، وأعود مجددا لوطني.

ابتسمت غيثة بخبث، وبنبرة وقحة: لا أدري، لكن خلال رحلة العمل، بدا لي منظفئا وصامتا، إنه غير مرتاح معك.

تجاهلت سارة كلامها، وفتحت مجلة أخرى، ففهمت غيثة الرسالة، نهضت من مكانها متوجهة لداخل القصر، وهي تقول بنبرة متوسلة: أرجوك، لما تعقدين الأمور علينا؟ لما تريدين أن تحرمينا من فرصة ثانية؟

كان يبدو القصر خاليا، خاصة بعد رحيل السيدة أم ريحانة وأختها وابنتها إلى المزرعة في الفترة الصباحية، فلم يبق فيه إلا عمتها وابنها يوسف وزوجها.

لم تستطع العمة حضور عشاء هذه الليلة، فاقتصر الحضور على أربعة أشخاص، جلست سارة على الكرسي المجاور لغيثة، بينما تجاور كل من يوسف وصلاح، بعد صمت رهيب في بداية الجلسة، رحب صلاح بشريكته الجديدة في مشروعه الخاص به، فهنئتهما كلما من سارة ويوسف، كانت سعادة غيثة بادية أكثر من صلاح بهذا الاتحاد، فاستغلت فترة العشاء في الحديث عن شراكتهما الجديدة، مذكرة بعلاقة الصداقة التي تجمع بين العائلتين، أولى صلاح اهتماما كبيرا بضيفته، جعل سارة تتمنى أن تهرب بأسرع وقت ممكن من المكان، وبينما تهم بأكل آخر قطعة من اللحم المشوي، تدخل يوسف موجها الحديث لها: لقد أخبرتني أمي عن رغبته بالتسوق غدا، أنا مستعد لأرافقك...

وبشكل مفاجئ وتحت نظرات الصدمة لكل من سارة وغيثة، قاطعه صلاح بنبرة غاضبة: كيف تظن سأسمح لك بمرافقة زوجتي للتسوق؟

أحس يوسف بخطئه، فأردف قائلا: أعتذر منك، لقد ظننتك مشغولا بمشروعك الجديد، لهذا اقترحت هذا العرض.

بنبرة حاسمة أجابه صلاح: لا تقلق يا صديقي، لدي الوقت لكل شيء، خاصة لزوجتي.

اكتفت بالصمت حتى لا تزعجه أكثر، واستغربت نبرته المتملكة لها وهو ينعتها بزوجته، لم تفهم ما يريد منها هذا الرجل، أكبرياؤه الذي كان يتحدث أم هي غيرة مصطنعة يدعيها، بالرغم من ذلك أسعدها تصرفه الذي كان ضربة قاسية لعشيقته السابقة.

انتهى العشاء، فانسحبت سارة لغرفتها بعد أن تمنت للجميع ليلة سعيدة، وبعد أن استقلت على سريرها، وأطفأت أضواء غرفتها، تفاجأت بطرقات خفيفة على بابها وبعدها انفتح، فكان هو أمامها، بشدة الهلع غطت كامل جسدها، وكرد فعل على تصرفها خاطبها قائلا: لم آتي لأغتصبك، لقد جئت أعلمك أن السائق سيحضرك صباحا إلى الشركة من أجل أن تشتري كل ما يخصك،

قبل أن ينصرف، سألته بنبرة مستغربة: ولماذا تساعدني؟

ومن دون أن يلتف إليها، أردف مجيبا بنبرة حاسمة: حتى أحقق وصية السيد الكبير.

حل يوم جديد، ولولا السيدة خدوج التي أيقظتها لظلت نائمة، أحضرت لها فطورها المعتاد، وذكرتها بموعدها مع السيد صلاح، وأثناء ثرثرتها المعتادة أخبرتها عن سفر السيدة عائشة المفاجئ.

أنهت سارة فطورها بسرعة، وأخذت دوشا خفيفا، ثم ارتدت سروالاً جلدياً أسود مع قميص قصير أبيض، وتركت شعرها المائل للحمرة منسدلا بشكل جميل، وغطت عينيها بنظارات سوداء، وحملت معها حقيبة من ماركة عالمية، فبدت مثيرة جدا، ثم فتح لها السائق الباب الخلفي للسيارة وصعدت.

لم تمر سوى نصف ساعة حتى وجدت نفسها أمام شركة ضخمة بموقع مرموق بمدينة مراكش، ذات مساحة شاسعة، وذات تصميم هندسي فريد من نوعه، قبل أن تهم بالنزول أوقفها السائق قائلا: إن السيد العاجي يخبركم يا سيدتي أنه سيكون هنا بعد خمس دقائق يا سيدتي.

وفي ميعاده الدقيق، وصل صلاح، فتح باب السيارة الخلفي وجلس بجوارها، تفحصها قليلا، فأردف مخاطبا السائق: خدنا إلى أقرب متاجر حشمة أو لمحل العبايات.

نظرت إليه وهي تشير إلى القائمة التي بيدها وقالت له: لا أريد عباية، بل هذه المقتنيات.

تفحصها مجددا، ثم أردف قائلا بنبرة ساخرة: لهذا السبب يجب أن نشتري عباية يا مدام... فلباسك هذا لا يليق بالمكان التي سوف نشتري منه هذه المقتنيات، ولا يليق بامرأة متزوجة.

نظرت إلى نفسها مجددا ثم أجابته بتحد: أرجوك، كفى، أنت تعلم أن زواجنا مجرد زواج صوري، لن أمثل دورا لا يشبهني.

غضب بشدة، وبنبرة حاسمة خاطبها: ما دمت زوجتي سوف تحترمينني، وعليك أن تاخذي إذنا قبل أي عمل تريدين القيام به... إذا كنت فعلا تريدين حريتك... أليس هذا ما ترغبين به؟

اكتفت بالصمت، لم ترغب أن تدخل معه في جدال لن ينتهي إلا بالكلام الجارح لأحدهما، لم ترغب أن تنفجر فيه، وتخبره أنها تعلم أنه يرغب في التخلص منها أكثر منه، حتى تسنح له الفرصة، ويتزوج بحبيبته السابقة، خاصة بعد أن توفي السيد الكبير، وأزيح ذلك الجدار الذي كان عائقا بينهما.

وصلا للمحل الخاص بالملابس المحتشمة، واختار لها فستان زهري طويلاً، ارتدته دون اعتراض منها، بدت فيه فاتنة، أحست براحة كبيرة لملمسه الناعم، أعجبت بذوقه الفريد، ولكن لم تحب الاعتراف له بذلك.

لم يستغرق شراء كل تلك المقتنيات الخاصة بالمسجد سوى أقل من ساعة، لقرب تلك المحلات من بعضها البعض، بعد ذلك دعاها إلى أحد المطاعم الإنجليزية، فاختارت أكلتها المفضلة، كلما أحست به لحظتها أنه يريد التكفير عن قسوته معها، فتغاضت عن كل شيء خاصة وأنها صارت تعرف أن أيامها معه صارت معدودة، فاستمتعت بكل لحظة معه، وهو الآخر تجاهل كل خلافاتهما وعاملها كصديقة مقربة، فحكى لها عن مشاريعه المستقبلية، وتحمس وهو يحكي عن شراكته الجديدة مع صديقته غيثة.

في الأيام التالية، اقتطع صلاح وقتا مهما من وقته الثمين، من أجل أن تتمكن سارة من تحقيق وصية السيد الكبير، فصار أكثر لينا وشهامة، وقدم له كل المساعدة من أجل تحقيق وصية السيد الكبير، استمتعت برفقته، وأحست بالأمان وبالسلام الروحي في المكان المقدس الذي تجهزه، تعلمت أشياء كثيرة عن دين اعتنقته فقط بالوراثة، أحبت الصلاة التي علمتها إياها المرأة المكلفة بالجناح الخاص بالنساء، كانت في البداية تجهل المغزى وسهولة هذه الوصية، ولكنها اليوم أدركت الغاية منها، لقد كانت فرصة لها لمعرفة خالقها الواحد الأحد.

لم يكد ينتهي الأسبوعان حتى حققت شرط الوصية كما ينبغي، ووجدت المحامي بانتظارهما بالقصر وهو مبتسم، رحب به صلاح، وقدمت لهما السيدة خدوج فنجان شاي ساخن، ولما همت سارة بالمغادرة لغرفتها أوقفها المحامي قائلا: أهنئكما، صار المسجد أجمل مما كان يتوقع السيد الكبير رحمه الله.

ابتسمت سارة للإطراء، وأردفت بنبرة متحمسة: ينقص فقط بعض الترجمات للقرآن الكريم باللغة الإنجليزية والفرنسية، حتى يتسنى لمن اعتنق الدين أو للمهاجرين غير الناطقين بالعربية الاستفادة منها، وسأوظف معلمتين لتعليم نساء المنطقة القرآن الكريم وتفسيره لهم، وسأدفع لهما أجرة شهرية.

-بارك الله فيك يا ابنتي، وهذا ما كان يأمله منكم السيد الكبير.

-إن هذا المكان مريح جدا للنفس، ووجودي فيه أحسن فرصة لمعرفة ديني، والتواصل مع خالقي، صحيح أنني لازلت مبتدئة، لكنني أحسن بالسلام والطمأنينة الداخلية.

-الحمد لله، هذا واضح عليها جدا يا ابنتي، وهذا ما كان يريده السيد الكبير، أليس كذلك يا صلاح؟

أحنى صلاح رأسه إيجابا، ثم أردف قائلا: أظن أنه آن الأوان يا سي إبراهيم أن تتحرر سارة من قيودنا.

ابتسم المحامي وأجابه: بالطبع، بعد يومين ستتصرف بكامل ثروتها كما تشاء.

تدخل صلاح قائلا بنبرة هادئة: وسأفعل الشيء نفسه، بعد أن أعود من رحلة العمل، سوف أفك أسرك.

عندما تَلَفَّظَ بهذه الكلمات، تبدلت ملامح وجهها، وأحست ببعض الاختناق، فجأة لم تعد تعرف ذاتها، وصارت دقات قلبها تنبض على نحو سريع، أدركت معها أنها صارت متعلقة بهذا الرجل، بل إنها صارت هائمة بحبه لدرجة الجنون، أرادت أن تبوح له بسرها، وتتوسله ألا يُطلقها ويَمنح هذا الزواج فرصة للحياة، لكنها تراجعت عندما تذكرت المرأة الأخرى، وتذكرت معها واحدة من الاقتباسات التي تؤمن بها **" لا تبني سعادتك على سعادة الآخرين، فما بالك إن كان الآخر حبيبك"**

10 أرجوك لا تتخلى عني

وصلت لفندق أطلنطا الكائن بمركز المدينة الحمراء * مراكش* متأخرة بنصف ساعة عن موعدها، فوجدت العرض في بدايته، كان الحضور غفيرا، ويضم الطبقة المخملية من المجتمع إضافة لبعض الصحفيين، رافقتها إحدى الفتيات المكلفات بالاستقبال لمقعدها المخصص لها، الذي كان من ضمن المقاعد الأمامية، كان المقعد المجاور لها خاليا، وهذا ما تفضله عادة عند وجودها بأحد الأماكن العمومية، كان العرض لأحدث تصميمات القفطان المغربي العالمي، بدت كارلا كالأميرات بكل قفطان ارتدته هذه الليلة، لمحتها كارلا بين الجماهير حتى ارتسمت على وجهها البهجة لرؤيتها، وابتسمت لها، فأرسلت إليها سارة قبلة صغيرة، كانت تخشى أن تعرفها خاصة، وأنها كانت ترتدي فستانا ذهبيا طويلا لا يظهر من مفاتنها شيئا، وتغطي عينيها بنظارات سوداء من علامة تجارية عالمية، ووضعت شالا حريريا ذهبيا يظهر نصف خصلات شعرها الأمامي، كانت تخشى من الصحافة الموجودة هنا، التي كانت تعرف بعض الوجوه منهم، استمر العرض قرابة الساعتين، لم تكن تخشى شيئا فهي تعلم لا أحد سينتبه لغيابها سوى السيدة خدوج، خاصة بعد سفر عمتها وعدم اهتمام زوجها الذي هجرها وقريبا سيطلق سراحها، ما أن أعلن عن نهاية الحفل حتى انطفأت الأضواء، وأشعلت أضواء خافتة على مسرح العرض، وفجأة أحست بيد قوية تقبض يدها، وبصوت رجولي مألوف يخاطبها آمر: حتى لو تغيرت على الجميع لن تتغيري عليَّ،تبدين فاتنة بهذا الزي الشرقي، اشتقت إليك يا حبيبتي.

نظرت إليه مذهولة، فهو دائما يفاجئها في الوقت والمكان الخاطئ، استجمعت قوتها وردت عليه: أرجوك يا جون، دع يدي سوف تكسرها.

أزال نظارته السوداء، ثم أمرها بأن ترافقه دون إثارة المشكلات، سحبها من يدها بقوة إلى إحدى الغرف الخاصة به، أقفل الباب خلفهما فصرخت به خائفة: بعد يومين سوف أدفع كل ديوني، أرجوك دعني أرحل.

حملق بنظرات مريبة ومليئة بالرغبة والغضب، وهو يقول بنبرة مخيفة: ومن أخبرك أنني أحضرتك من أجل الديون؟ أعتقد أنك تقرئين أفكاري، أم تراك فقدت حاستك السادسة التي أخبرتني عنها يا حبيبتي؟

شعرت بالرهبة تجتاح كل أوصالها، وصرخت فيه: كل ما يجمعنا هي تلك الديون وبعد يومين، أرجوك دعني أرحل.

ضحك بصوت عال ثم أردف قائلا: لقد دفعها زوجك الغبي من دون أن يطرح أي سؤال.

لم تستطع تصديق كلامه، فوضع يده على ذقنها، وأكمل بنبرة ساخرة قائلا: لقد أرسلت إليه إحدى السيدات، واخبرته أنها تدين لك بهذه الصكوك، والمسكين صدقها، ودفع لها كل المبالغ دون تردد.

أحست سارة وكأن صفعة لطمت وجهها فخاطبته منهارة: والصور...الصور...أين هي؟ هل أخذت الثمن من دون أن تعطي المقابل، يا لك من خبيث؟

ضحك بسخرية، ثم أردف مجيبا: لا تقلقي يا حبيبتي، بعد أن أحصل عليك هذه الليلة، ستتوصلين بصورك الكاملة... وقبل أن ينهي حديثه انقض عليها كالوحش، مزق ثيابها بقوة، حاولت أن تقاومه، لكنه كان أقوى منها، ولولا انفجار الباب واقتحام حراس الشرطة للغرفة وبرفقتهم صديقتها كارلا لنال من طهارتها، فارتمت سارة باكية في أحضانها، فطمئنتها الأخيرة بأنها لن تراه من هذه الليلة، وأخبرته أنه متابع دوليا بتهمة تبييض الأموال وتهريب المخدرات عبر القارات، وقبل أن تأخذه الشرطة بعيدا عنهما، ابتسمت له كارلا ساخرة: أنا وسارة نتمنى لك قضاء سنوات ممتعة في السجن.

ضحك بسخرية وهو يجيبها: وأنا أتمنى أن تنال الهدية التي تركتها لصديقتك سارة مع زوجها المحب إعجابكما.

ما أن اختفى من أمامهما حتى أردفت كارلا 'هل أنت بخير يا حلوتي؟ الآن...'، لم تكد تنهي كارلا لحديثها حتى انهارت سارة على الأرض باكية، كان كابوسا مخيفا الذي مرت به في هذه الليلة، أحست كارلا بمشاعرها فحاولت طمأنتها: لن يعود مجددا، صدقيني، سيقبع في السجن ما تبقى له من حياته، أرجوك كفى بكاء يا طفلتي، أنسيت كم من ظروف أقسى من هذه مرت بنا، وكنا أقوى منها؟

وبشكل مفاجئ وجهت لها سارة الحديث بنبرة غير مصدقة: وماذا لو عاد؟ ودمرنا بطريقة أو بأخرى.

وبشكل ناعم رفعت دقن سارة بيدها نحوها، ثم نظرت إليها بعينين واثقتين وبنبرة صارمة أجابتها: لو عاد، سوف أقتلك.

لم تستطع سارة أن تكبح ضحكتها، فهي لم تتخيل كارلا بتلك القامة النحيلة أن تهزم رجلا بضخامة وقوة جون، قرأت كارلا ما يدور في مخيلة صديقتها، فضحكت هي الأخرى، ثم أردفت قائلة: يبدو أنك لا تثقين بقدرات صديقتك، من أجلك يمكن أن أصبح أقوى النساء في العالم.

في تلك الأثناء، نظرت سارة لساعتها، فوجدتها تقارب الثانية عشر ليلا، فقررت قضاء تلك الليلة مع صديقتها بالفندق التي تسكنه، خاصة وأن الوقت صار متأخرا للعودة إلى القصر.

في أثناء طريقهما للفندق سردت لها كارلا عن كيفية معرفتها بوجود هذا المجرم بهذا الفندق، وأنها استخدمت متحرياً خاصاً لمتابعة كل أخباره، حيث إنها شكت في أن مجيئه لهذا المكان لم يكن بمحض الصدفة، وأنه ربما يُخطط لكارثة ما، فأبلغت الشرطة، لتكتشف أن الإنتربول الدولي يبحث عنه، وإن بعد انتهاء العرض بحثت عنها بين الجماهير الحاضرة فلم تجدها، فشكت فيه فورا.

عانقت سارة صديقتها، وأردفت قائلة بنبرة هادئة: لا أدري، ماذا كان سيحصل لي في هذه الليلة لو لم تكوني صديقتي.

ضحكت كارلا، وهي تلطم وجه صديقتها الصغير ممازحة، ثم أردفت قائلة: سأكون بجانبك دائما أيتها الحمقاء، وإذا أوصدت الأبواب كلها أمامك فالباب دائما مفتوح لك.

استيقظت في وقت الظهيرة، ففتشت بعينيها عن صديقتها كارلا في السرير المجاور لها، فوجدتها مختفية، بصعوبة وقفت على قدميها متوجهة للحمام لإعادة توازنها، بعد المعركة التي واجهتها الليلة الماضية، التي لا تزال آثارها واضحة عليها بكل جزء من جسمها، أنهت حمامها بسرعة، وارتدت روب قطني خاص بالحمام من خزانة صديقتها، حتى وجدتها أمامها مبتسمة وبين يديها صينية تضم فطورا متنوعا، ثم انسحبت مغادرة لتقوم بمكالمة دولية مهمة.

لم تمر لحظات على مغادرة كارلا للغرفة، حتى سمعت دقات خفيفة على الباب، فاعتقدت أن صديقتها كارلا قد نسيت شيئا وعادت بسرعة، قامت سارة من سريرها وفتحت الباب، فدُهشت عند رؤية صلاح أمامها بقميص أبيض مفتوح قليلا.

وسروال عملي، ويضع سترته بين يديه، كان يبدو أنه لتوه خارج من اجتماع عمل طويل، وأنه لم ينم للحظة واحدة، كانت كل علامات الغضب بادية على وجهه، اقتحم الغرفة قبل أن تطلب منه، وابتسم بسخرية عند رِؤية صينية الفطور على السرير، ثم أردف: وتستمتعين بفطورك وكأن شيئاً لم يحصل.

لم يعجبها أسلوب حديثه الغريب معها، واستغربت تغيره المفاجئ، فسألته بنبرة جادة: ماذا تعني؟ أنا لا أفهمك، أهناك شيء ما حدث مع العمة عائشة؟

بشكل غير متوقع أخرج من جيب سرواله صفحة مطوية لإحدى الجرائد، ورماها بها وهو يقول: ألم تكتف من الفضائح؟ (كانت صورتان تؤرخان لمعركة الأمس، الأولى تجمعها بجون، وهو يضع يده على كتفها بطريقة مشبوهة في أثناء العرض والثانية في الغرفة الخاصة به في أثناء وصول الشرطة، ومكتوب عليهما * علاقة حب جمعتهما أم هي جريمة مكتملة الأركان* صدمت سارة، وأردفت بنبرة منكسرة: هذه الصور مزيفة، صدقني.

بعد سنة، سارت سارة أكثر هدوء واتزانا في سلوكها هندامها، كما واصلت مسيرتها في التعرف على خالقها من خلال المساجد والمجالس الإسلامية الموجودة في لندن، وبالرغم من عدم ارتدئها للحجاب فقد نجحت في المواظبة على أداء صلواتها بشكل يومي، ونجحت أيضا مع صديقتها من بدء تحقيق حلمهما، من خلال تدشين متجر العطور الشرقية الراقية بلندن، الذي اشترته بثمن باهض بفضل ميراثها الشرعي، الذي تكلف محامي عائلة العاجي بتحويله إليها كاملا عبر حسابها البنكي بلندن، ورغم محاولات المحامي الحثيثة لإقناعها بعدم بيع كل ممتلكاتها لكنها رفضت، فليس هناك شيء ما قد يعيدها إلى تلك الأرض، ولم يبق لها سوى نصيبها من القصر الذي لا يباع ولا يشترى طبق لوصية السيد الكبير.

كان المتجر ذو مساحة كبيرة جدا، بموقع مرموق، ينقسم لجزء داخلي يضم مختبراً لصنع العطور وجزء أمامي كواجهة لعرض العطور المنتجة، حاولت الإسراع بعرض منتجاتها الخاصة قبل أن تنجب صديقتها كارلا التي كانت في نهاية شهرها الخامس، وصار بطنها بارزا بشكل واضح، بعد أن تزوجت أحد مصممين الأزياء الشباب، الذي كانت تعرفت إليه خلال أحد العروض الأزياء التي شاركت في تقديمها.

بعد افتتاح متجر العطور الخاص بهما، صدمت للإقبال الضعيف من طرف الزوار بالرغم من التخفيضات والعروض المغرية، فضاعت كل الأموال التي أهدرت للتسويق له.

مرت أربع أشهر أخرى، ولا زوار ولا أرباح تُذكر، بدأت تحس بأنها صارت على حافَّة الإفلاس، وفجأة تبخرت أحلامها في رمشه عين، كانت كارلا المساندة والداعمة الوحيدة لها، ورغم آلام المخاض الذي تحس بها بين الفينة والأخرى، كانت معها وتعمل على شحنها بالطاقة الإيجابية إلى أن صرخت بأن ميعاد ولادتها قد حان، نقلتها سارة لأقرب مستشفى، وفي عز ضيقها وحزنها غمرتها سعادة كبيرة وهي تحمل أول مرة إحدى الطفلتين التوأم لصديقتها كارلا، التي أعطتها إياها وهي تقول: لقد سمينا أنا وزوجي ماثيو بسارة والطفلة الأخرى كارلا، وبعد أن انسحب ماثيو ليحضر بعض الملابس لزوجته والطفلتين، استغلت كارلا الفرصة لتعتذر إلى صديقتها قائلة: أنا آسفة لأنني لن أكون معك في هذه الأوقات الصعبة، ريثما أنظم أموري مع الطفلتين، سأكون بجانبك.

ضحكت سارة، وأردفت تحاول طمئنتها: لا تقلقي، سأتدبر كل شيء، وستتحسن الأمور في القريب، اهتمي بالصغيرتين.

أجابت كارلا والقلق بادي في عيناها: أتمنى ذلك، وأتمنى أن أراك مستقرة في حياة عائلية أيضا .كانت سارة تشاطرها نفس القلق فهي نفسها لا تعرف المصير الذي يؤول إليهما متجرهما في ظل الركود الذي تعرفه العلامة الخاصة بهم من العطور.

حل يوم آخر، كانت لوحدها بالمختبر، منهمكة بتخليط إحدى العطور بيديها، سمعت خطوات قادمة نحوها، وجهت نظرها للزائر المقتحم لمختبرها بوقاحة، لتفاجأ بآخر شخص توقعت أن تراه لهذا اليوم، بدا لها أكثر وسامة من قبل، أنيق بلباسه الرسمي، أزال نظارته السوداء، فسحرها، فتأكدت أن مشاعرها نحوه لم تتغير، وبنبرة دافئة خاطبها: لقد وجدت إعلان عن بيع هذا المتجر، فجئت.

ابتسمت سارة ابتسامة باهتة، ثم ردت بنبرة منهزمة: نعم، أتريده؟

بدت له أكثر براءة وجمالا بلباسها الشرقي الفضفاض، وساحرة بشعرها الأصهب الممو ج المنسدل على كتفيها، الذي صار أكثر طولا عن آخر مرة رآها فيها.

أحس بوجعها فأجاب بنبرة متعاطفة: بل أريد مساعدتك، أعلم أنك بذلت مجهود كبير من أجل هذا المشروع الذي أنشأته بحب، لكن هذا لا يكفي يا سارة.

كان كلامه منطقيا جدا، فهو يخاطبها الآن بصفته رجل أعمال ناجح في مجاله، حتى تشبع فضولها استدرجته في الحديث متسائلة بنبرة بريئة وحائرة: وللآن، لا زلت أبحث عن ذلك الخلل، أم هل أنا مقاولة فاشلة؟

ما أن أنهت حديثها حتى ابتسم ثم أردف موضحا: لست فاشلة، بل اختيار الموقع كان غير موفق بتاتا، فتواجدك بين متاجر مرموقة هو ظلم بحق متجرك، كما أن التخفيضات التي قمت بها خلال الافتتاح أضرت بسمعة عطورك المبتكرة، سيعتقد الكثير من زوارك أنها ذات جودة ضعيفة، وينقصك أيضا ذلك العطر البراق .... استمعت له بتمعن، ثم سألته بشكل مفاجئ :ولماذا تريد مساعدتي؟ وبهذا الوقت؟ ألست عارضة فاسدة؟ فماهي اللعبة التي تلعبها معي الآن؟ ما تريد مني؟

دَنَا منها أكثر وأردف بنبرة متوسلة: أريدك أن تغفري لي، سأفعل أي شيء لأكفر عن كل كلمة جرحتك بها، وعلى كل ألم سببته لك، لولا كارلا ما كنت سأعرف بالحقيقة الكاملة...لقد كان عليك إخباري بأن ذلك الحقير أرد أن يعتدي عليك.

نظرت إلى عينيه فبدتا صادقتان، وبنبرة متألمة أجابت: لقد حاولت، لكنك أهنتني وطردتني...

قاطعها قائلا: كنت غيورا وأعمى في تلك اللحظات، لقد حاولت الاتصال بك مرات عدة لأطلب السماح، لكنك رقمك لا يعمل، وحتى السيد إبراهيم رفض منحي أي معلومات تخصك، بعد أن علم بما فعلت معك، أرجوك . دعيني أساعدك.

ابتسمت له سارة وأجابته بنبرة ساخرة: أهي وصية أخرى يتوقف تنفيذها على وجودي معك؟ أرجوك يا صلاح، كفى تلاعبا بي... لقد تعبت ...

أوقفها بنبرة متوسلة: بل جئت لأنفذ وصية قلبي الذي يحبك ولا يستطيع العيش من دونك، وصار مصيره بين يديك.

كانت كلماته التي وجهها لها كماء أعاد حلاوة الحياة لها من جديد، فهي لم تستطع تجاوز مشاعرها نحوه على الرغْم من الشهور التي مرت عليها، ورغم العمل الذي حاولت أن تشغل نفسها به، لقد كانت هذه فرصتها لتعلن له عن أحاسيسها نحوه، لكن لسانها خانها .

ذلك الصمت الطويل، أفقده كل الأمل بعودتها إليه، فأردف بنبرة متألمة: حسنا، لن أجبرك على شيء لا تحبينه، دعيني فقط أساعدك في مشروعك الرائع .

وعندما لم تجبه، انكسر قلبه من جديد، حتى يحافظ على ما بقي له من كبرياء وكرامة، انسحب مغادرا، لكن قبل أن يخرج من باب متجرها، صرخت به وهي مشوشة الأفكار: ألم تطلقني، وماذا عن غيثة؟ ألا تحبها؟ ألن تعطيها فرصة أخرى؟ ألن تتزوجها؟ استدار نحوها، ورد بنبرة مستغربة: بالطبع، هذا مستحيل، لا يجمعني بتلك المرأة إلا العمل، لقد كنت في يوم ما موهوما عندما اعتقدت أنني أحببتها في الماضي، السيد الكبير كان محقا عندما كان معارضا لهذه العَلاقة الميتة، إنها مجرد باحثة عن الثراء السريع، وقريبا سوف تتزوج من رجل مرموق في البلاد .لحقت به، بنبرة غير مصدقة سألته: وكيف تأكدت من مشاعرك هذه؟

وبجراة غير معتادة أجاب: عندما التقيتك أول مرة انتابتني مشاعر متناقضة نحوك، فكنت أتجنبك حتى لا أضعف أمامك، وعندما رحلت افتقدتك كثيرا، فلم أستطع أن أطلقك، حتى تطلبين مني ذلك، عندما لم تأت المبادرة منك، كنت سعيدا جدا.

ابتسمت له، ثم ارتمت معانقة إياه وبنبرة كلها سعادة خاطبته " وأنا أيضا لم أرغب في الطلاق منك، وسعيدة لأنك لم تفعل ذلك.....

كان يعلم بردها سلفا، ومع ذلك أصر أن يسألها بنبرة ماكرة: ولماذا لم ترغبي بذلك؟

وبخجل أضافت: لأنني أحبك.

فما كان منه إلا أن ضمها إليه بحب، وهمس لها متعهدا إياها بحياة من النعيم، جعلها هذا العناق الدافئ تشعر بالأمان الذي كانت تبحث عنه دائما، لقد كانت تظن أنها أسيرة لهذا الرجل ولهذا القصر.بل ولهذا الوطن، لكن رحيلها، جعلها تدرك أن الحياة دون هذه الأشياء هي حياة بئيسة.

النهاية